الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المرجع: .....

العادات والتقاليد العربية في الرّحلات الغربية

نماذج من النصوص الرّحلية الغربية

مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة الماستر

الشعبة: أدب عربي

التخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين :
*أشواق قواري
*سناء دغة

إشراف الأستاذ :
عبد الحفيظ بورايو

السنة الجامعية: ٢٠١٥/٢٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾
النمل: ١٩

شكر وعرفان

انطلاقا من قوله سبحانه وتعالى:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾(إبراهيم:الآية ٧)، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ»

الحمد و الشكر لله رب العالمين كما ينبغي لجلال وجهه و عظيم سلطانه على ما أنعم علينا من نعم لا تحصى، منها توفيقه إيانا لإنجاز هذا العمل، و ندعو الله أن يتقبله منا قبولا حسنا وأن ينفعنا و ينفع المسلمين به.

وبعد: فإنه لا يسعننا إلا أن نتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان لفضيلة المشرف الكريم حفظه الله ورعاه لتفضله بالإشراف على هذه الرسالة، وما بذله من جهود طيبة في قراءتها وما أبداه من ملاحظات أثرتها، فنشكر الأستاذ "عبد الحفيظ بورايو" وجزاه الله خير الجزاء، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، تحيات تقدير واحترام للأستاذ المشرف.

كما نتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الفاضلين اللذين تقدما لمناقشة هذه الرسالة، فلهما منا أصدق التحيات وفائق التقدير و الامتنان، وجزاهما الله عنا خير الجزاء.

وكل الشكر والتقدير إلى من ساهم أو أرشد أو نصح ، وكل من ساهم في إثراء هذا العمل و إخراجه إلى النور.

أشواق** سناء

مقدمة

مقدمـــــة

يكفي أن تجلس مع خير جليس، وبلا حاجة إلى أن تقطع المسافات وتغوص عبر المحيطات، حتى تلتقي بعالم جديد ودنيا مختلفة، وتستمتع بالتعرف على شعوب وثقافات، وتقاليد وعادات هذا ما يقدمه لنا أدب الرحلات.

هذا الأدب الذي يعد لونا أدبيا ذا خصوصية تميزه عن بقية الألوان الأدبية الأخرى؛إذ تتدخل فيه أنواع مختلفة من الخطابات كالشعر، والسيرة الذاتية والجغرافيا والتاريخ وغيرها، ويتنوع أسلوبه مابين السرد القصصي والوصف والحوار، إضافة إلى طابعه الذي يتسم بالإمتاع والمؤانسة.

ويعتبر "أدب الرحلة " من الفنون المهمشة، والتي تكاد تكون مغيبة في الدراسات الأدبية العربية القديمة بالرغم من أنه يعتبر من الفنون التراثية المتجذرة في الأدب العربي تتجلى أهميته من كونه وسيلة من وسائل التواصل مع الآخر ويعتبر من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية لكشف المجهول والوصول إلى الغاية والتعرف بأوصاف البلدان الطبيعية ومناخاتها، وخصوصا الإحاطة بالعادات والتقاليد.

ويعتبر موضوع العادات والتقاليد في التراث الرحلي حسب علمنا من المواضيع التي لم تحضى بنصيب وافر من الكتابات، إلا بعض ما أشار إليه الباحثون عند دراستهم لمواضيع معينة.

ومعظم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع تعود للرحالة الذين زاروا البلاد العربية وهم في غالبهم أجانب، ووجودهم كان للاستعمار، إلاّ أن عادات وتقاليد المجتمع العربي كثيرا ما أثارت فضول العديد من الرّحالة العرب، لما فيها من متعة وأسرار ظلت محفوظة ومجهولة في الكثير من الأحيان؛فألفوا حولها كتبا ووضعوا لها دراسات حملت مضامينها رؤى الرحالة الغربيين الذين حرصوا على تقديم صورة واضحة عن العادات والتقاليد الشعبية المتجذرة في المجتمعات العربية، فحين اطلاعنا على هذه العناوين نجدها تعكس في جانب كثير منها

الفضول المعرفي الذي يسيطر على أولئك الرحالة، حيث حاولوا من خلال رحلاتهم أن يجيبوا عن هذا الفضول.

وانطلقا مما ذكرنا وباقتراح من الأستاذ الفاضل تم اختيار موضوع دراستنا تحت عنوان "**العادات والتقاليد العربية في الرّحلات الغربية** " ، دراسة في نماذج من النصوص الرّحلية الغربية.

هذا الموضوع شجعتنا عليه عوامل نذكر من منها :

- تشجيع الأستاذ المشرف "عبد الحفيظ بورايو "الذي كان أول خطوة دفعتنا إلى اقتحام هذا الموضوع ودراسته.
- يعتبر موضوعا بكرا لم يحظ بدراسة مستقلة جادة جاء الحديث عنه جزئيا في بحوث محدودة جدا فقط.
- الإجحاف في حق أدب الرحلات شجعنا أكثر على الاهتمام بهذا الفن ونمى لدينا الرغبة الشديدة في الكشف والإلمام ولو بالشيء القليل من حيثياته.
- إيضاح دور الرّحالة الغربيين في تحمل الصعاب من أجل التعرف على العادات والتقاليد العربية.
- التعرف والاطلاع على كتابات الرّحالة الغربيين من جهة، وعلاقتها بالآخر؛أي علاقة العرب بالغرب من جهة أخرى.
- اهتمامنا بموضوع الرّحلات والرّحلة الغربية بصفة خاصة ومحاولة استنطاقها.

وللخوض في غمار هذا الموضوع وتغلغل ضمن حيثياته قمنا بطرح الإشكالية التالية :

✓ **ماهي أهم العادات والتقاليد العربية التي تجلت في النصوص الرّحلية الغربية؟**

وكيف ساهم هؤلاء الرّحالة في إزالة الستار والكشف عنها ؟

وتندرج ضمن الإشكالية الرئيسة أسئلة فرعية:

-ما المقصود بالرّحلة ؟وأدب الرّحلات؟و ما هي أنواعه؟ وما هي الغاية التي يؤديها؟

وكيف أسهم هذا الأدب في الكشف عن العادات والتقاليد العربية؟

-وكيف ينظر الغرب إلينا وإلى عاداتنا وتقاليدنا؟

ولمعالجة إشكالية الموضوع والإجابة على الأسئلة المتفرعة عنها اعتمدنا منهجا تكامليا قوامه:المنهج التعريفي والنفسي و المنهج التاريخي وما يتطلبه من آليات المقارنة، الاستنباط، التحليل، والمنهج الوصفي الذي استحضرناه من خلال السياقات الخارجية والذي رأينا أنه الأجدر للإحاطة بالموضوع، كما اعتمدنا المنهج الوصفي التحليلي، الذي اعتمدنا عليه بشكل كبير في وصف الرّحلة ومختلف محطاتها ومعاينة الوضع العام للمجتمعات العربية، وما قدمه الرّحالة من معلومات وأحداث ومشاهدة تتعلق بمختلف الجوانب، ومعرفة مدى موضوعية الرحالة ونزاهته وصدقه في معالجتها ثم القيام أحيانا بمقارنة وتقسيم لهذه النصوص المختلفة في بعض مواضيعها بحكم تنوع المصادر.

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة ومعالجتها ، قمنا بوضع خطة تضمنت مدخل وفصلين، تناولنا في المدخل (مسار فن الرحلة وجذوره، دواعي تدوين الرحلات والمنهج المتبع في طريقة التدوين، بالإضافة إلى أدبية الرحلة).

أما الفصل الأول والموسوم بـ"إضاءات نظرية حول أدب الرحلة" تطرقنا فيه إلى مفهوم الرحلة وأنواعها ودوافعها، ومفهوم أدب الرحلة وقيمته ، الموروث الثقافي وعناصره ، أهمية العادات والتقاليد). ثم عرجنا إلى الفصل الثاني والمعنون بـ"الرحالة الغربيون ودورهم في الكشف عن العادات والتقاليد العربية " الذي خصصناه للحديث عن (أهم العادات والتقاليد العربية التي تجلت في النصوص الرّحلية الغربية).وفضلا عن مقدمة ثم شفعنا له بخاتمة التي تم فيها بلورة لأهم النتائج.

ومن أجل إعداد هذا البحث " العادات والتقاليد العربية في الرحلات الغربية" اعتمدنا على مجموعة من المصادر المعربة، أو الأجنبية حيث حاولنا جمع أكبر عدد ممكن منها لبناء الموضوع والتعرف على قدر أوسع من العادات والتقاليد في البلاد العربية ونذكر منها:

- ✓ ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا للرحالة الألماني هاينريش فون مالتسان، بأجزائه الثلاثة .
- ✓ قسنطينة أيام أحمد باي (١٨٣٢، ١٨٣٧) لفندلينشلوصر
- ✓ مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (١٨١٦، ١٨٢٤) لوليام شالر .
- ✓ رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (١١٤٥هـ، ١٧٣٢م)لـ ج.أو.هابنسترايت.
- ✓ رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز لريتشارد.ف.بيرتون.

ولإثراء الموضوع لجأنا إلى مراجع أخرى منها :

- ✓ أدب الرحلات لحسين محمد فهيم .
- ✓ الرحلة إلى الشرق في الأدب الجزائري لسميرة أنساعد .
- ✓ أدب الرحلات لفؤاد قنديل.

أما عن الصعوبات التي واجهتنا فيمكننا حصرها في صعوبة الحصول على المصادر ومسألة تحديد الصفحات من قبل الإدارة، هذا الأمر جعلنا نكتفي بدراسة بعض الجوانب دون التعمق والتوسع في أجزائها بالإضافة إلى صعوبة توظيف منهج بعينه .

وكما تطلب البحث منا جمع المادة جهدا كبيرا كذلك تطلب إعدادها وتصنيفها ثم دراستها جهدا أخر وذلك من أجل إبراز هذا اللون المهمش فهان في سبيل هذا الهدف كل صعب بالتوفيق من الله.

وفي الأخير لا يسعنا، إلا أن نتقدم بالشكر الوافي للأستاذ المشرف "عبد الحفيظ بورايو" على قبوله الإشراف على البحث، وعلى النصائح والإرشادات التي قدمها لنا خلال انجاز هذا العمل كما لا يسعنا إلاّ أن نسدي له التقدير والعرفان على صبره وما قام به من توجيه ومتابعة وتقديم أضاء البحث وقرب أهدافه، فجزاه الله خير جزاء.

مدخل

أولا : مسار فن الرحلة وجذوره

ثانيا: دواعي تدوين الرحلات والمنهج المتبع في طريقة التدوين

ثالثا: أدبية الرحلة

أولا –مسار فن الرّحلة وجذوره:

إن طبيعة الحياة البشرية، تقتضي العيش في فلك حياة يحفز على السفر والارتحال، ومن أسراره سبحانه وتعالى أن جعل الأرزاق مقسمة، ولم يجمع الخيرات والمنافع في بقعة واحدة، أو عند أشخاص معينين،بل جعلها متناثرة في مختلف الأقطار، وهذا ما يحفزهم على التواصل، والتعاون، والتطور، والتثاقف فيما بينهم بالإضافة إلى تبادل المنافع المختلفة، وطبعا فإن كل هذا يتأتى من خلال الانتقال والسفر بين مختلف بقاع الأرض،وهكذا هي "حياة الإنسان رحلة دائمة لا تتوقف إلاّ على تخوم الأبدية ".[1]

ويبدو أن الحديث عن أصالة الرّحلة في البيئة العربية من المسلمات التي شهد عليها القرآن الكريم، فمن العدم إلى الوجود كانت رحلة آدم وحواء الأولى،ومن الجنة إلى سطح الأرض الرّحلة الثانية، التي عمروا فيها وانتشروا وسعوا وراء مصادر رزقهم. ومن الرحلات الأخرى رحلة نوح في السفينة، ورحلة يونس في سفينته وفي بطن الحوت، ورحلة سيدنا إبراهيم مع زوجته سارة إلى مصر وغيرها من القصص التي وردت في القرآن الكريم والتي لاتخفى علينا .ومنذ ذلك التاريخ السحيق لم تتوقف رحالات البشر.

وكما شهد القرآن الكريم على وجود نصوص الرّحلة، فإن نصوص الشعر الجاهلي قد أثبت ذلك أيضا حيث وجدت في البيئة العربية كواقع ماثل، وعنصر فني موظف في نتاج الشعر الجاهلي.وهذا ما أشار إليه حسين نصار في قوله: " لم يتحدث الشعراء عن رحلات الظعائن فقط، بل تحدثوا عن رحلاتهم هم أيضا إذا كانت على، الأمر الذي يلجأ أليه الشاعر ليسري عن نفسه وما تحمل من هموم ".[2]

[1] –حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص٥.

[2] – حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة الوطنية المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١ مصر ١٩٩١، ص١٠٠.

قال طرفة بن العبد :[1]

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

وقد أضاف وهب رومية في كتابه "الرّحلة في القصيدة الجاهلية "إلى أنّ الرّحلة سجلت انتشارا واسعا عند العرب منذ القديم "بلونيها: رحلة الضعائن والرّحلة على الناقة (...)، كانتشار القبائل في تلك الصحراء الآل والطلول ومواطن النجعة، فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على النقلة والرعي وحماية مواطن الغيث وما يتصل بذلك من الحروب تقطع وشائج الدم والحلف والحب جعلت من الجاهلي إنسانا عالقا بالأرض في شؤون الحياة جميعا ".[2]

وأما بعد الإسلام فقد اتخذت الرّحلة طابعا أو منحى آخر، إذ " صارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسيماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وبمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميز ".[3]الذي يمتزج فيه الواقع بالخيال، دون أن ننسى الجانب الأنثغرافي، ليكون بذلك أدب الرّحلة "مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة .[4]

وإذا تتبعنا مسار أدب الرّحلة في أدبنا العربي فإننا نجد أن:

العرب شرعوا في تأليف رحلاتهم، منذ القرن الثالث الهجري واصطبغت مؤلفاتهم بالصبغة الجغرافية والتاريخية، "ولكنهم لم يدونوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادرا، أما معظمهم فقد أدمج حديث وأخبار تلك الرَحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم

---

[1]– عمرو بن العبد، [طرفة] ديوان، تح: د عمر الطباع، دار القلم للطباعة والنشر، (د.ط)، بيروت، (د.ت)، ص ٢٤.

[2]–وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص ص١٩، ٢٠.

[3]– عمر بن قينه، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، ١٩٩٥، ص١١

[4]– حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة،(د.ط)، الكويت، ١٩٨٩، ص ١٥.

البلدان".[1] وأهم المؤلفين ابن خرداذبه "ت٢٧٢هـ"والذي ألف "كتاب المسالك والممالك"، وباستقرار الدولة وكثرة تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرَحالين،واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين مايرون ويشهدون ويسمعون،أخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الأقاليم والمناطق دراسة وافية. وصارت المعرفة الجغرافية هي الأصل.

ويمكن القول بأن هذه الفترة أي القرن الرابع[العاشر للميلاد] تمثل دور النضج في الجغرافية العربية، يلاحظ الباحثون في هذه الفترة أربع اتجاهات أو تطورات في التأليف الجغرافي العربي الأول: العناية الشديدة بأقطار العالم الإسلامي، والثاني نوع من التخصص في قطر واحد والاتجاه الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية،ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة.[2]ومن كتاب القرن الرابع الهجري أحمد بن جعفر اليعقوبي "ت ٢٨٤" مؤلف" كتاب البلدان"، والمسعودي صاحب كتاب" مروج الذهب ومعادن الجوهر".

وفي القرن الخامس الهجري يطل علينا البيروني صاحب كتاب "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة"هذا الكتاب الذي ألفه بعدما "قام بعدَة رحلات علمية في بلاد الهند،والتي استقر فيها نحو أربعين سنة". ثم جاء بعده الطبيب البغدادي ابن فضلان،الذي قام بعدة رحلات بحثا عن المعارف والعلوم،ومن بين البلدان التي زارها الشام، ومصر،التي التقى فيها بالطبيب المعري ابن رضوان،وأنطاكية والقسطنطينية .[3]

ويليه في التأليف في الرحلات جماعة من المعاصرين ومن كتاب القرن الرابع الهجري،كأحمد بن جعفر اليعقوبي "ت ٢٨٤" مؤلف" كتاب البلدان"، والمسعودي صاحب كتاب" مروج الذهب ومعادن الجوهر".وأهم رحلتين جغرافيتين في هذا القرن هما " نزهة

[1]– أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، جدة، (د.ت)ص ١٧.

[2]– نقولا، زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، (د.ط)، بيروت، ١٩٨٧، ص١٢.

[3]– حسني محمود حسن، مرجع سابق، ص ١٣.

المشتاق في اختراق الآفاق"، لأبي عبد الله محمد الإدريسي " ت٥٦٢" ورحلة" تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب" "ت٥٦٤"

وابتدءا من أواخر القرن السادس الهجري عرفت الرحلة تحولا في اتجاه الكتابة، من اعتناء بجغرافية البلدان وأثارها الحضارية، إلى اعتناء بسرد يوميات الرحالة وذكر لكثير من خصوصياته، مع تحول في الطابع الأسلوبي للكتابة؛ وبهذا انتقلت الرحلة من الطابع العلمي إلى الطابع الأدبي، وقد مثل الرحالة الأندلسي محمد بن جبير "ت٦١٤هـ" أحسن تمثيل الاتجاه الأدبي، برحلته المعنونة " تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار.

ويلاحظ المتتبع لمسار التأليف في الرحلات العربية انتقال التأليف مع مطلع القرن السادس الهجري من المشارقة إلى المغاربة، الذين عرفوا بعد في مجال التأليف، بتفوقهم في أدب الرحلات.

وقد عرفت الرحلة في الوطن العربي تراجعا ملحوظا خلال القرنين: التاسع والعشر الهجريين، لشدة وطأة الحروب، وتزايد هجمات الأوربيين على السواحل المغاربية على الخصوص، لكن الرحلة رجعت إلى نشاطها المعهود،ابتدءا من القرن الحادي عشر الهجري نشاطها المعهود، ومن بين الذين عرفوا في فن الرحلة في هذه الفترة، الحسن بن محمد الوزان "ت٩٥٧هـ" مؤلف وصف إفريقيا وأبو سالم العياشي "ت ١٠٩٠هـ" صاحب الرحلة الضخمة " ماء الموائد"، وأحمد بن ناصر الدرعي " ت١١٢٨هـ" صاحب" الرحلة الناصرية الكبرى".[١]

ومع حلول العصر الحديث تغير اتجاه الرحلات من المشرق والمغرب،إلى أوروبا، وذلك يرجع إلى التطور الحاصل بدول الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية،ولم يعد المهتمون بطلب العلم، يشدون الرحال إلى مصر، والحجاز، والعراق، كما كان قديما؛بل كانت رحلات العرب نحو الغرب مما عرفهم بمظاهر الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر، ونتج عن

[١] - سميرة أنساعد،الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، (د.ط)، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٤٢.

هذه الرحلات خلال العصر الحديث الكثير من المؤلفات والتي وصفوا فيها مشاهداتهم و سجلوا انطباعاتهم وآرائهم، وبالإضافة إلى ذلك نقلوا فيها خلاصة مطالعوه من كتب الغربيين الفكرية والأدبية مما جعل هذه المؤلفات تؤدي دورا فعالا في تعريف الآخرين بالحضارة الغربية، ومن أشهر الرحلات التي مثلت هذا الاتجاه رحلة رفاعة الطهطاوي "ت١٢٩٠هـ" إلى فرنسا " تخليص الإبريز في تلخيص باريز" ، وكذلك أحمد فارس الشدياق "ت ١٣٠٥هـ"الذي أنجز رحلات إلى مالطة، وبريطانيا، وفرنسا وجمع أخبارها في كتابين سماهما " الوساطة في معرفة أحوال مالطة "، و" كشف المخبئ عن فنون أوروبا ".

أما في المغرب العربي نخص بالذكر الرحالة خير الدين التونسي والذي أوجز أخبار رحلته إلى فرنسا في كتاب سماه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك". وفي الجزائر تعد رحلتا الجزائريين: سليمان بن صيام، وأحمد ولد قاد، المنجزتان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،والمعنونتان بـ" الرحلة الصيامية " والرحلة "الفادية في تبصير أهل البادية " من الرحلات التي مثلت التوجه الجديد لدى الرحالين.

وتتعد الرحلات في القرن العشرين،وتتنوع في الاتجاهات والمقاصد،مما يعجز البحث عن تعداد الرحالين في الوطن العربي ويمكن ذكر أشهرهم، محمد لبيب البتنوني"ت١٣٥٧هـ" المعروف برحلته الحجازية، الشيخ رضا "ت١٩٢٠م" الذي له في فن الرحلة رحلتان إلى سورية، وأمين الريحاني "ت١٩٤٠م" وغيرهم .[١]

ورغم ما يظهر اليوم في الغرب من تفوق في فن الرحلة؛إلا أنه يمكننا الوقوف على بعض المظاهر التي يمكن أن نعتبرها جذورا للرحلة في صورتها البدائية البسيطة عندهم، وجميعنا نتفق على أن التطور، والكمال، يبدأ بالبساطة عبر فترات مختلفة من الزمني مكن أن يرضخ فيها للإضافة، والتعديل، والإثراء قبل أن تكتمل صورته وتتحدد هويته ومن المؤكد

[١]– ينظر :سميرة أنساعد، مرجع سابق، ص ص ٤٢،٤٩.

طبعا أن الأمم جميعها قد " مرت بعدة مراحل قبل أن تصل إلى ما هي عليه اليوم، من دقة وضبط ".[١]

وانطلاقا من هذا يمكننا القول:" أن جذور أدب الرحلات كانت بسيطة إذ لا تعدو أن تكون مجرد انطباعات سجلها الرحالة الأوائل في رحلاتهم، ومغامراتهم المختلفة ".[٢]

والحقيقة أن الرحلة في التراث الغربي لا يمكن أن نتحدث عن تأصيلها وظهورها الحقيقي إلا مع ظهور كتّاب وصلت إلينا كتبهم فعلا أو وجود أثار مادية أقرها الباحثون، تكون شاهدا نطمئن إليه وعليه نبني أحكامنا، وما يهمنا في رحلات الغرب هو " معرفة كيف ينظر الغرب إلينا وإلى قيمنا وأخلاقنا وتقاليدنا، وإدراك الأهداف الاستعمارية التي كانت واضحة في ثنايا هذه الكتب التي جاءت سجلا شاملا لكل أحوالنا السياسية والعسكرية والدينية والاقتصادية والأخلاقية ".[٣]

إن الرّحالة الغربيين لم يكتبوا عن البلاد العربية حبا فيها ولا إعجابا بماضيها،وإنما كانت لهم غايات كثيرة كالجس والتجسس،وتسهيل الهجرة لمواطنيهم كي تطأ أقدامهم البلاد العربية، وإقامة المستعمرات بها، وقد كانت جل هذه الرّحلات توظف لأغراض عدوانية حتى مكان منها متشحا بثوب العلم والبحث الذي طالما ارتداه أعداء الأمة تمويها على طريق تحقيق أغراض مشبوهة أو حقيقية،ولكن نتائج أبحاثهم وعلومهم جندت لقهر الشعوب واستعبادها،ولعل أهم دافع يجعل الرَحالة الغرب يكتبون عن العرب هو الرغبة في التعرف على شعب عربي،يؤمن بقداسة العادات والتقاليد.

وعند قراءتنا لكتب الرّحالة الغربيين فإننا نجد أنفسنا أمام موسوعة مختصرة لتاريخ دولنا العربية في حقبة من الزمن.حيث كتب عنها هؤلاء الرّحالة بأسلوب سلس رصين عن

---

[١]– حسني محمود حسين، مرجع سابق، ص ٧.

[٢] – نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، العدد ٨٨، المملكة العربية،يوليو ١٩٨٤،ص ٧١.

[٣]– محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، ط١، جدة، ٢٠٠٠، ص١٠.

مختلف مظاهر الحياة،وصورة الوطن العربي في المتخيل الغربي تتأرجح بين الرضا والسخط،فهناك من يبدي إعجابه بالبلاد العربية التي زارها فنراه يذكر محاسنها ويمدح أهلها ويثني عليهم،ويتحدث عن تجربته معهم،في حين أننا نجد العكس عند بعض الرَحالة حيث ينعتون البلاد العربية التي زاروها بأبشع الصفات ويذمون شعبها وكل شيء فيها.ولهذا الرضا أو اسخط ما يبرره،وهو التقدير والاحترام،وحفاوة الاستقبال،وحسن معاملة وكرم الضيافة، فإن توفرت هذه الأشياء في المنطقة التي حلَ بها الرّحالة،فإن ذلك ينعكس في كتاباته.وإن انعدمت فإننا نرى العكس.

والرّحلة سواء عند العرب أو عند الغرب يغلب على مادتها الواقعي من الأحداث والدقيق من الملاحظات،ذلك أن الواقع يفرض على الرّحالين أن يتصفوا " ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق ".[1]

ثانيا– دواعي تدوين الرحلات والمنهج المتبع في طريقة التدوين:

قبل أن نتطرق إلى دواعي تدوين الرّحلات ونذكر المنهج المتبع في طريقة التدوين،فإننا ننبه إلى أنه هناك"عدد كبير من الرّحلات لم يدون فقد أحجم عن ذلك أصحابها لظروف اجتماعية،أو رحيل مفاجئ بعد طول إرجاء،وقد يأبى ذلك البعض ترفعا عن ذكر مايرونه من الأمور الشخصية،وقد لا يرى البعض في ذلك نفعا لأحد،وكثير منهم لم يتحمس للكتابة عنها،بعد أن بسطها شفاهة ورواها على جمع من الأصدقاء فخبت جذورها وذوى وهجها.خاصة إذا تكررت الرواية وكم من رحلة مدونة وصلتنا نصوصها،لم يكن لصاحبها الفضل الأول في تدوينها بل كان ذلك تلبية لأمر حاكم أو سلطان.وليس من شك في أن عدم التدوين دلالة على أن هؤلاء الرّحالة لم يدركوا تماما أهمية رحلاتهم، أو في الأغلب استقر في أعماقهم أنها فعل شخصي،وسفرة خاصة،ابتغى منها صاحبها الخلاص من أزمة،أو الهروب من عقوبة،وليس الغاية من ورائه الريَاء والسمعة، واستعراض المشاق وألوان

[1]– حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص ١٦.

المعاناة التي عاناها واحتملها وهي محط رضاه،مادام يأتيها ويشقى بها من أجل الهدف الأسمى.[1]

١- دواعي تدوين الرحلات:

لقد ذكرت سميرة أنساعد في كتابها "الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري" عدَة أسباب دعت إلى تدوين الرّحلات أهمها:[2]

١-تلبية طلب الآخرين من حكام،وأصدقاء وأقرباء، بتدوين الرَحلة وإمتاعهم بالاطلاع على ما أثار إعجاب الرَحالة ودهشته،فرحه وحزنه وما استقطب اهتمامه للمعاينة والتحقيق...

٢-ذكر أخبار الأمم والأقوام،والجماعات البشرية،ماضيا وحاضرا وعرض محاسنها ومساوئها،عاداتها،وقيمها،طقوسها الدينية،وطرائق عيشها.

٣-التأريخ للأحداث المتنوعة،وتقديم معلومات موجزة،أو مفصلة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان المختارة أو المقصودة من الزيارة.

٤-دعوة الرّحالة مواطنيهم إلى التغيير من أحوالهم وتوعيتهم.

٥-رغبة الرّحالة في نيل الثواب من الله تعالى وحصوله على البركة والخير بذكر الأماكن المقدسة من الحجاز الظريف،وأهله الأبرار وكل ما يتعلق بالدين الإسلامي في حال تدوين رحلة حجازية.

---

[1]- محمد بن سعود الحمد، موسوعة الرّحلات العربية والمعرّبة المخطوطة والمطبوعة معجم ببليوجرافي، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ص١٩، ٢٩.

[2]- سميرة أنساعد، مرجع سابق، ص ص ٣٥، ٣٦.

وطبعا تتعدد دوافع تسجيل الرّحلات وتختلف، والرّحالة كانوا ذوي حرص على تدوين نتائج استقصائهم وملاحظاتهم الدقيقة عن المنطقة التي زاروها، ويضيف أبي الحسن القلصادي الأندلسي مايلي :[1]

١-وغالبا ما يبعث الزائرين للبقاع المقدسة إلى التدوين شعورهم بوجوب إطلاع على مواطنيهم على أخبار تلك البقاع الشريفة البعيدة، التي شعر الجميع بالحنين إليها والتي كانت زيارتها لا تتم إلاّ في ظروف قاسية، ولا تتحقق إلاّ بجهد ومشقة كبيرين .

٢-تخليد ذكر صاحب الرّحلة ورغبته في هداية مواطنيه وتعريفهم المسالك التي يقطعها الحجيج والمخاطر التي ينبغي الحذر منها في الطريق .

[1]-أبو الحسن القلصادي علي الأندلسي، رحلة القلصادي، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ط)، (د.ت)،ص ص ٦٧، ٦٨ .

٢-منهج التدوين :

إذا اتضح الهدف من الرّحلة والتدوين، وتوفرت المادة ما على الرّحالة إلا أن يشرع في تدوين رحلته، موازنا بين الهدف والمادة، وبين التجويد الفني، ليصل إلى القارئ ويؤثر فيه وعليه أن يختار واحدا من المناهج التالية :[١]

أ-التدوين الزمني:

وهو أكثر المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا داخليا، ويحدد فيه الرحالة بداية الرحلة ونهايتها، وقد يقسم رحلته إلى وحدات زمنية معتمدا على اليوم أو الأسبوع، أو الشهر ... وفي هذا الإطار إما أن يعنون الفصل بالزمن، أو يذيله به، وقد تلاعب الرحالة والأخير، حرصا على التشويق.

ب- التدوين المكاني:

وهو من الأنواع الشائعة عند الرّحالة القدماء، إذ يتتبع الرّحالة التسلسل الطبيعي للرّحلة على أرض الواقع، وهو ما يعرف عند القدماء بمراحل الطريق، وهو في تعمله مع المكان يصفه وصفا ذاتيا أي خارجيا بحتا، في حين أن هناك أماكن ذات أهمية قصوى.وقد يستند إلى أوصاف سابقيه من الرّحالين أو المؤرخين أو الأدباء فيد عمم شاهداته.

ج-التدوين الموضوعي:

ويقوم على اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان، أو شعب، أو عدة أماكن، أو شعوب... ويراعي في ذلك التسلسل الزمني والمكاني، أو يهمل، وقد يندرج تحت الموضوعات الأساسية موضوعات فرعية.

---

[١]- ينظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، أدب الرحلات عند العرب، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، ط١، القاهرة ، ١٩٩٥، ص ص٦٣،٦٦.

د-التدوين الانتقائي:

قد يحدث أن يقوم الرّحالة برحلات عديدة، ويخص كل رحلة بكتاب ثم تتراءى له أن يدون خلاصة ما توصل إليه في كتاب واحد، فيعود لينتقي منها أفض لما فيها شرط أن يكون متجاوبا مع الهدف الجديد. وبعض الرّحالة يروق له أن يرحل في كتب الآخرين،فيؤلف كتابا منها،يعرض فيه لأفضل الرّحلات، ولأفضل ما في كل رحلة، يساعده على ذلك خبرته وذوقه المنقح الواعي.

هـ-التدوين الاستدعائي:

فيه يعتمد الرّحالة على تداعي الأفكار وتواردها، وهذا المنهج أقرب إلى العشوائية لاعتماده على الذاكرة التي شحنت بنتاج الرّحلة، وقد يكون ذلك المنهج عاما في الكتاب كله، أو في تفاصيله بمعنى أن يبين العمل على أساس واضح، وفصول منظمة، ولكن المادة التي يصاغ منها الفصل تعتمد على منطق التداعي هذا.

ثالثا- أدبية الرحلة:

لقد أحدث مصطلح " أدبية الرّحلة " تساؤلات عديدة فهناك من تساءل عن سبب التسمية، وهناك من أنكر أدبية الرّحلة ورأى أنها، مادة تحتوي على معلومات جغرافية، واقتصادية، وعمرانية، وسياسية، واجتماعية فقط، وأكد على أن لغة الرّحلة تقترب إلى لغة الحديث اليومية، أي لغة نثرية جافة لا تتجاوز الوصف والحكي وتخلو من البلاغة، والإبداع اللغوي ويأبى أن تنضم الكتابة عن الرّحلة إلى أجناس الأدب المختلفة كالشعر والقصة والرواية.

وردا على كل من أنكر أدبية الرّحلة، وأبى أن تنضم الكتابة عن الرّحلة إلى أجناس الأدب المختلفة، كالشعر والقصة والرواية والأدب المسرحي وأدب الطفل والدراسات النقدية، نورد ما أتى به محمد بن سعود الحمد، في "موسوعة الرّحلات":[1]

١-تتضمن بعض نصوص الرّحلة أشعارا كحلية أسلوبية، وإشاعة لجو جمالي، يضفي على النص جاذبية، فضلا عن النصوص الثرية المختارة، ومنها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي يبثها الكاتب ضمن سياقه اللغوي، وليس بصورة منفصلة.

٢-هناك نصوص للرّحلة رفيعة المستوى، جذابة الأسلوب تحفل بالجمال والخيال، والعبارات المحلقة ذات القدرة للإقناع والتأثير، ومن الأساليب ما يتميز بالعذوبة والتدفق دون صنعة أو تكلف أو صنعة .

٣-تتفق كافة كتب الرّحلة في الاعتماد على تقنية الوصف، لأنها المهمة الأولى لكتب الرحلة... وصف العمارة والرسوم، وصف الحجر، والبشر، وصف الطبيعية بما فيها من أنهار وجبال وأشجار، وشروق الشمس وغروبها، وأحوال القمر، والسهر والسمر، وعادات الناس وغيرها .

٤-لا تخلو كتب الرّحلة من الفكاهة والمدح والسخرية مع الإمتاع والمؤانسة وهي دون شك سمات أصلية في الأدب.

٥-إنّ من يتعللون بالمادة الاقتصادية، والعلمية، والسياسية،والعمرانية، وفيض المعلومات الأنثروبولوجية والأنثوغرافية التي يوالي الكاتب غمرنا بها، هي ذاتها مكمن أدبية الرحلة، لأنه في الأغلب يقف منها موقفا انتقائيا، يختار من بينها ما يود أن،يحمل وجهة نظره أو يؤكدها، وهي من هذا الجانب نص ذاتي، كل ما فيه يطل من خلال رؤية الكاتب الخاصة ومشاعره وأفكاره، والذاتية إحدى السمات الأساسية لكل نص أدبي .

[1]- محمد بن سعود الحمد، مرجع سابق، ص ص٢٣، ٢٤.

٦- تحفل كتب الرّحلة بالقصص، الحقيقي منها والأسطوري، المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى...ومعظم كتب الرحلة كتبها أصحابها بأسلوب أدبي جذاب، توافرت له كل عناصر القص، من مواقف وشخصيات وصراع وحبكة وتدفق آس، ووصف دقيق لاماكن وأحوال وعادات، الأمر الذي يؤكده موهبة الإبداع القصصي." ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة. ومن غير شك من يتهمون هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر ... مما الحقيقية حينا، ويرفع بنا إلى عالم خيالي حينا آخر".[١]

[١]- شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي، الرحلات، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة (د.ت)،ص٦٠.

الفصل الأول

إضاءات نظرية حول أدب الرحلة

أولا:مفهوم الرحلة

ثانيا: الرحلة وإشكالية التسمية

ثالثا:أنواع الرحلات

رابعا:دوافع الرحلة

خامسا:مفهوم أدب الرحلة وقيمته

سادسا: مفهوم أدب الرحلة وقيمته

أولا- مفهوم الرّحلة:

١- الرحلة في اللغة:

تلقى مادة رحل في شتى المعاجم العربية مجالا رحبا ونصيبا وافرا من الاهتمام والعناية بهذا المصطلح ،ونظرا لأهميته نجده أخذ النصيب الكبير من الشرح والتفصيل.

وقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور:"رحل البعير رحلاً،فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل. . . ارتحلت البعير إذا ركبته. . . يقال رحل الرجل،إذا سار،. . . وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحّال عالم بذلك مجيد له. . . والترحل الارتحال، الانتقال وهو الرّحلة والرحلة : اسم الارتحال والمسير. . . والرحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده. . . والمرحلة المنزلة يرتحل منها، وما بين المنزلتين مرحلة. [١]

وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي يقال:(مضى القوم من الفعل رحل ومنه الارتحال. وبالضم الوجه الذي تقصد والسفرية الواحدة، يقال راحله،أي عاونه على راحلته أي استرحله، سأله أن يرحل له ومنها هذا رحل الرجل، أي منزله ومأواه فهو من هذا إلّا أن ذلك يقال في السفر لأسبابه التي إذا سافر كانت يرتحل بها عند النزول وهو الأصل). [٢]

كما وردت الرحلة في معجم مقاييس اللغة على أنها مأخوذة من "رحل" الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضيّ في سفر.يقال رحل يرحل رحلة... والرّحلة:الارتحال...ورحله إذا أظعنه من مكانه.[٣]

وتكاد معظم المعاجم اللغوية الأخرى تجمع على أن الرّحلة هي انتقال من مكان إلى آخر، فرغم تعدد مشتقات المادة إلاّ أنها تدور حول معنى واحد وهو الحركة، والتي تمثل جوهر الرحلة ودليل الحياة وسّر الوجود، لذا كان على الإنسان أن يتحرك وأن يرحل فأنتجت حركته هذه ميلاد رحلات عديدة، تنوعت بتنوع أغراضها ومقاصدها.

---

[١]-ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب م١١، مادة "رحل "، دار صادر ، ط١ ، بيروت،١٩٩٠، ص ٢٧٩.

[٢]- ينظر:الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٣ ، دار الجيل، ط٣، بيروت (د.ت) ، ص٣٠٩ .

[٣]- ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٢، تح : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر(د.ط) ، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٩٧.

٢- الرّحلة في الاصطلاح :

وبعد أن تحدثنا عن مفهوم الرّحلة،من خلال تصفحنا للمعاجم اللغوية، فإننا نأتي الآن على مفهوم الرّحلة من الناحية الاصطلاحية.

تعددت مفاهيم الرّحلة في الاصطلاح، ولا يمكننا أن نحصرها في تعريف واحد يمكن الاتفاق عليه من قبل الدارسين والباحثين لأن التعاريف قد تتعدد وتتباين،من دارس إلى آخر فكل يعرف حسب اتجاهه وخلفيته وزاوية، اهتمامه بها –الرّحلة – ورغم تعدد هذه التعريفات إلاّ أنها تصب في قالب واحد.

فالإمام الغزالي عرف السفر والرّحلة بأنهما"نوع حركة ومخالطة، أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة،وأوضح أن الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلاّ في غرض، والغرض هو المحرك. [١]

وهناك من يري أن : " الرّحلة تعد من أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما أتّهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة. [٢]

وعرفها بطرس البستاني بأنها "انتقال واحد–أو جماعة–من مكان إلى مكان آخر لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة". [٣]

ويتقدم د. صلاح الدين الشامي خطوات حين عدّها "انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويأتي هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه،

---

[١]– نقلا عن ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص ٢٤.

[٢]– شوقي ضيف، مرجع سابق، ص٦٠.

[٣]–بطرس البستاني، دائرة المعارف، مج٨، مطبعة المعارف، (د.ط) بيروت، ١٨٨٤، ص ٥٨٤.

وقد تكون احترافا يخدم حاجة الإنسان، ويشبعه، ولكنها تكون–في الحالتين– استجابة مباشرة لحوافز و دوافع محددة تدعوا بكل الإلحاح للحركة والتنقل. [1]

وليس من الشك أن الرّحلة تعد من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وتوسيعا لخبراته وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين وعن العالم من حوله،وفي هذا الصدد يقول الرحالة أبي حسن علي المسعودي:"ليس من لزم جهة وطنه وقنعا بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسّم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه،وإنارة كل نفيس من مكمنه". [2]

وكل الرّحلات بدأت ضيقة، ثم اتسعت مع مر الزمن، فالإنسان ولدا رحالا، وإن أعجزته الرّحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مثبوتا في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلا في الحروب والفتوح القديمة. [3]

ونخلص من خلال هذه التعاريف السابقة، إلى أنه لا يوجد اختلاف بين مفهوم الرّحلة لغتا ومفهومها اصطلاحا، إذا تجمع كلها على أن الرّحلة حركة، وهذه الرّحلة ذات هدف معين، متى تحقق هذا الهدف تحصل المنفعة، والتي يتطلع إليها كل رحالة آثر الحركة على السكون، وليس من شك أن الرّحلة تعد من أكثر المدارس تثقيفا للإنسان وتوسيعا لخبراته ومعارفه، وإثراء لفكره وتأملاته، عن نفسه وعن الآخرين وعن العالم من حوله.

---

[1]– ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص ص٢٤، ٢٥.

[2] – المسعودي أبو الحسن علي ابن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج١،تقديم: محمد السويدي، موفم للنشر،(ط.١)،الجزائر،١٩٨٩،ص٣.

[3]– شوقي ضيف، مرجع سابق، ص٠٧.

٣-الرحلة في القرآن والسنة:

لقد مارس العرب الرّحلة منذ فترة الجاهلية برا وبحرا ، وارتبطت في غالب الأحيان عندهم بالتجارة، وأمّا بمجيء الإسلام فقد زادت العناية بهذا الفن،وتم التشجيع على السفر والترحال وحث على الرحلة مها كانت دوافعها. وتظهر عناية ديننا الحنيف بالرّحلة من خلال ورود ذكرها سواء ا معنا أو لفظا في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

أ- في القرآن الكريم:

ورد لفظ رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة قريش في قوله تعالى:﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ۝٤﴾. [١]ففي هذه السورة ارتبطت الرحلة بالتجارة، والتي كان يقوم بها أهل مكة صيفا إلى اليمن وشتاءا إلى الشام.

كما جاءت لفظة "رحل "في القرآن بمعنى البعير، وهي مرادفة للراحلة.[٢]

في قوله تعالى :﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾. [٣]

وكما ذكرنا سابقا أن لفظة "رحلة " وردت في القرآن الكريم مرة واحدة ، إلاّ أن هناك إشارات عدة لمعنى الرّحلة في آيات عديدة، كان الغرض منها متباينا، إلاّ أن هذه الإشارات تصب كلها في قالب واحد وهو الحث على الرّحلة والارتحال،ونذكر منها الظعن ،الهجرة ، السفر ،الإسراء،الحج،السير.

---

[١]- سورة قريش ،الآية، ١، ٢، ٣، ٤.

[٢]- سميرة أنساعد ، مرجع سابق،ص ١٧.

[٣]- سورة يوسف ،الآية ٧٠.

وهذا ما أكدته الدكتورة سميرة أنساعد في دراستها الموسومة بـ" الرّحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري"،وذلك من خلال إشارتها إلى عدد المواضع التي وردت فيها كل لفظة،فمثلا تقول عن لفظة الظعن أنها جاءت مرة واحدة في سورة النحل في "الآية ٨٠" في قوله تعالى﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾.

أما عن لفظة الحج ومشتقاتها فقد تكررت في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة،منها ما جاء في سورة الحج "الآية ٢٧" يقول تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾فهنا يأمر الله سبحانه وتعالى كل قادر ومستطيع على القيام بفريضة الحج، وكذلك فان لفظة " الهجرة" فقد ترددت سبعة وعشرين مرة، واختصت بالرحلة لغرض نصرة الدين وتبليغه فرارا به من أرض الكفر.[1]

وحول هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾.[2]

وتعزيزا لما سبق وتأكيدا لعناية ديننا الحنيف بالرّحلة،نأتي على أمثلة أخرى وهي مستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا وهو القرآن الكريم،حيث دعا في مواضع عديدة إلى السفر والترحال والضرب في الأرض نذكر من ذلك قوله تعالى:﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾. [3]أي أمشوا في جوانبها وطرقها وسافرو في أنحائها، وكلوا مما رزقكم الله في الأرض. [4]

---

[1]– ينظر :سميرة أنساعد، مرجع سابق ، ص ص١٧، ١٩.

٢ –سورة البقرة، الآية٢١٨.

[3]– سورة الملك، الآية ١٥.

[4]وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم ومعه أسباب النزول وقواعد التنزيل ، ج٢٩، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سورية ١٩٩٤، ص٥٦٤.

وينبهنا فؤاد قنديل في كتابه " أدب الرّحلة في التراث العربي " إلى أن كلمة الفلك وردت في عدة آيات مما يدل على أن العرب في حياتهم كانوا على علم بها، لأنهم صنعوا السفن وأبحروا وتاجروا في مجاهيل البر والبحر التي عرف العرب جنبا من ظلماتها واصطادوا من خيراتها المتنوعة. [1]

وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾. [2]

وقال أيضا:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. [3]

وإذا تأملنا في هذه الآيات الكريمة، فإننا نجد أن الله جلاّ وعلا يدعونا ويحثنا على السعي في بقاع هذه الأرض، وجوبها سواء برا أو بحرا ،وعلينا الاستعانة بالفلك لخوض هذه البحار والغوص في أغوارها والانتفاع بخيراتها، وكما كانت الرّحلة وسيلة نفعية الإنسان وفرت له لقمة العيش،فإنها كانت أيضا الوسيلة التي حملت الرسالة وبلغتها إلى كافة الخلق ونشر الدعوة، فهي ارتبطت ارتباطا وثيقا بقضايا التربية والتعليم والجهاد والتفكير والدعوة إلى الله كما كان الحال مع الأنبياء الذين ذكر الله أسفارهم في القرآن: إبراهيم،إسماعيل،لوط، وإسحاق،ويعقوب، وموسى، هارون، وداود، سليمان وعيسى ومحمد عليهم وصلوات الله وسلامه أجمعين.

[1]– ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربي للكتاب، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٢٩، ٣٠.

[2]– سورة البقرة الآية ١٦٤.

[3]– سورة الإسراء الآية ٧٠.

ب-الرحلة في السنة النبوية الشريفة:

لم يكن القرآن الكريم وحده الحاث على الرّحلة، بل إن في السنة النبوية الشريفة الشيء الكثير الدال على ذلك،وهذا ما تؤكده أحاديث الرسول عليه الصلات والسلام. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ". . . **ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة،وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله،ويتدارسونه بينهم إلاّ نزّلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** ".[1]فهنا يحثنا رسولنا الكريم ويشجعنا على الرّحلة بغية طلب العلم.

وقد كانت الرّحلات في زمن الرسول محدودة، لأنهم كانوا في شغل بالرسالة وإرساء قواعدها وتثبيت أقدامها في الجزيرة العربية أولا، ومع ذلك يمكن اعتبار الهجرة الأولى التي قام بها نفر من الصحابة إلى الحبشة [2].والتي كانت بأمر من الرّسول صلى، فاستجابوا لذلك فرارا بالدين وخوفا على أنفسهم من الفتنة. [3] على رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه رحلة،وكذلك الهجرة الثانية، وهي الهجرة الكبرى التي خرج بها الرّسول. ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة حماية للدين الجديد ودعما له،فإنها تعد رحلة أيضا. لكن الرّحلات بكافة أشكالها تعددت على عهد الخلفاء الراشدين. [4]

وبعد أن تعرفنا على مفهوم الرّحلة في القرآن الكريم والسنة، فإننا بعد ذلك نخلص إلى أن هذا النشاط متصل بتاريخ الإنسان ، كما أنه اقترن بدوافع نفعية مختلفة كالتجارة والبحث عن سبل آمنة للعيش،أو مشاهدة آيات الله في الأرض والتدبر فيها والقيام بالحج والعمرة، وطلب العلم من منابعه،أو الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة و نصرة الدين الإسلامي.

---

[1]- مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ،ج١٧، دار الكتب العلمية ،(د ط)، بيروت ،١٩٩٢، ص١٩.

[2]- فؤاد قنديل، المرجع السابق ، ص٣٢.

[3]- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة. مكتبة الملك فهد الوطنية(د.ط)،الرياض،١٩٩٦، ص٤٣.

[4]- فؤاد قنديل، مرجع سابق ،ص٣٢.

ثانيا-الرحلة وإشكالية التسمية:

تضم الرّحلة في ثناياها جملة من العلوم والمعارف المتنوعة والمتعددة كما يجمع جل الدارسين على أنها " نص غير واضح الحدود، يمكن أن يسكب فيه أيشيء: الموسوعات العلمية، وفهارس المتاحف، وحكايات الغرام، فهو يمكن أن يكون كتابا مليئا بالعلم، أو دراسة نفسية، أو بكل بساطة حب أو كل ذلك معا ".[1]

هذا ما دفعنا إلى الوقوف على إشكالية التسمية في فن الرّحلة، فهذه القضية لا تزال مثارا للجدل والنقاش، ورغم الدراسات التي قدمها الدارسون حولها، إلاّ أنهم لم يتوصلوا بعد إلى اتفاق بشأنها؛ ولعل ذلك راجع إلى طبيعة الرّحلة ذاتها، باعتبارها فن تتجاذبه علوم ومعارف متعددة، كالتاريخ والجغرافية والأدب وعلم الاجتماع، والاقتصاد والسياسة... الخ إذ نجدها تنتشر في" نصوص عديدة سواء كانت شعرا أو نثرا، نصا دينيا أو دنيويا، ترجمة ذاتية أو غيرية، مذكرات أو انطباعات جغرافيين أو مغامرين، متخيل صوفية ومريدين أو مرويات وخرافات، فهارس وكتب طبقات، سير وأخبار، طرائف شطار وتعاليم حكماء".[2]

وقد تعددت التسميات التي وظفها الدارسون في حديثهم عن الرّحلة، فمنهم من يتحدث عن الجغرافيا الوصفية، ومنهم من يتحدث عن الأدب الجغرافي، وآخر يتحدث عن أدب الرحلة، ويمكن إجمال هذه التسميات في:

١-الجغرافيا الوصفية:

وهي ذلك العلم الذي يعنى بدراسة سطح الأرض، وما عليها من انهار وبحار، ووديان وجبال وسهول وتلال وظواهر طبيعية، ولدراسة هذه الظواهر ووصفها والوقوف على هذه الأرض المترامية الأطراف، لابد من الحضور المادي والفعلي الذي لن يتحقق له إلا

[1] -جبور الدويهي، الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن ١٨، مجلة الفكر العربي،العدد١٩٨٣،٢٣، ص٥٨.

[2] – عبد الرحمن مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر،دار السويدي، للنشر و التوزيع ، ط١، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة،٢٠٠٦،ص٦١.

بالانتقال والرحلة، التي تسمح له بان يتواجد في مختلف الأقطار و الأمصار، ففي القديم وكما هو معلوم كان" بعض المؤرخين و الجغرافيين العرب، يعتبرون رحالين؛ إذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرّحلة ".[١]

لقد تداخلت العديد من الرّحلات ضمن تأليف التاريخ والجغرافيا وهما العلمان المتلازمان اللذان "كانا في نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التي كانت تسمى الأدب بصورة عامة ".[٢]

ومن خلال هذا التداخل الذي نجده بين الرّحلة والجغرافيا، أن في كليهما يتمركز المكان كأساس لا يمكن الاستغناء عنه؛ إذ لا رحلة ولا جغرافيا يمكن أن نتصور لهما وجودًا دون مكان، فعين الرّحالة كعين الجغرافي، أول ما تقع إنّما تقع على المكان، مما يدل على الارتباط الوثيق بينهما" ففي مجال الكشف الجغرافي، ووصف الأقاليم، لعبت الرحلة دورًا كبيرًا فيها تضمنته تلك الأعمال من معرفة وبيان، أضحيا الآن تراثا تفخر بهما الأمة العربية الإسلامية".[٣]

٢-الأدب الجغرافي:

وهو من أبرز المصطلحات التي ارتبطت بفن الرّحلة؛ إذ نجد أن كثيرًا من الدارسين أجمعوا على توظيف هذا المصطلح في كتاباتهم؛ التي تكون ذات طابع علمي، يقدمون مادته بأسلوب يوازن بين المواضيع العلمية والأسلوب الأدبي، وهم بذلك يمزجون فيها " بين الغاية العلمية من كشف واكتشاف لمظاهر الكون والإنسان وبين الغاية الأدبية المجسدة في مظاهر المتخيل من الحكايات والأساطير والمرويات المختلفة ".[٤]

---

[١] -حسني محمود حسين، مرجع سابق، ص٧.

[٢] – حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي ،ط١، القاهرة ١٩٨٦،ص١.

[٣] -حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص٩٥.

[٤] – عبد الرحمن مودن، مرجع سابق ،ص٦١.

وهذا الربط بين "الأدب" و "الجغرافيا" هناك دلالة عن أن في المؤلفات التي يمكن إدراجها ضمن دائرة الأدب الجغرافي، توجد علاقة" بين المتخيل والواقع بين الرحلة والخريطة أو التضاريس المرسومة سلفًا، والمتداولة بين الكشافين والمغامرين، ثم الرّحالة أخيرًا".[١]

٣-أدب الرحلة:

وهو المصطلح الأكثر ارتباطا بفن الرّحلة والأكثر توظيفا عند الدارسين والباحثين والمهتمين بهذا الفن وفي هذا النوع من الأدب "أدب الرّحلات"، يتمركز شخص الرّحالة كأول عنصر أساسي، ويشترط فيه أن يكون الرّحالة عاشقا للرّحلة، يرى نفسه فيها في حياة جديدة متجددة، يهوى السفر ويشتاق إليه، ويجد فيه المتعة رغم مكابدة الشقاء ويسعى إليه لحاجة في نفسه،ممّا يجعله رّحالة حقيقة وبالمعنى الدقيق للكلمة،حيث يرتقي إلى مقام الباحث " وما الباحث إلاّ اسم آخر للرّحالة؛ إذ الرّحال الحق يود أن يرحل دوما، حتى لا يكون من يبحث عنه ".[٢]

ويمكن اعتبار أدب الرّحلات " ذلك النثر الذي يصف رحلة واقعية ما، قام بها رحالة متمكن من لغته، متميز بأسلوبه وسعة خياله، يتمتع بقدرته على التأثير في المتلقي".[٣]

وفي الأخير نخلص إلى أن كل من الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافي، وأدب الرحلات، تسميات لها علاقة بالرّحلة، فهذه الأخيرة تمثل الركيزة الأساسية فيها، وجميعها تشتمل على تلك الأدبية من خلال الأسلوب، وحضر بعض المقومات الجمالية والفنية، والانفعالات الذاتية. ذلك أن الرّحالة في كتابته ينطلق دائمًا، من قناعته أنه يكتب في الأدب بمفهومه الواسع.

---

[١] –عبد الرحمن مودن، مرجع سابق،ص٦١.

[٢] – ناصر عبد الرزاق الموافي،مرجع سابق، ص٤١.

[٣] – مرجع نفسه، ص ٤٠.

ثالثا – أنواع الرحلات:

بما أن حياة العربي كانت تقوم على الحل والترحال،فمن المؤكد أن الرّحلة وجدت منذ بداياته الأولى. وقد حاول الدارسون تصنيفها،وحصرها في أنواع عامة،لكنهم اختلفوا في تصنيفاتهم لها.

ونجد أن صلاح الدين الشامي في كتابه "الرحلة عين الجغرافية المبصرة " عين ستة أنواع.ثلاثة منها ظهرت قبل الإسلام،وهي رحلة التجارة،ورحلة الجهاد،ورحلة السفارة. والثلاثة الأخرى ظهرت بمجيء الإسلام،وهي رحلة الحج ورحلة،ورحلة طلب العلم،ورحلة التجوال والطواف. [1]

أمّا محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب " الإكسير في فكاك الأسير " فقد أضاف إلى ما سبق ذكره من أنواع،أنواعا أخرى،إذ يقسم الرّحلات إلى خمسة عشر نوعا. وهي الرّحلات:الحجازية، الرسمية، الأثرية، الزيارية، العلمية، البلدانية، الفهرسية، السياحية، الدراسية، الاستكشافية،السياسية،المقامية،الخيالية،العامة.[2]

وعلى العموم فإن أقرب التصنيفات للواقع هو الذي يحصر الرحلة في الأنواع التالية:

١– الرحلات الواقعية:

والمقصود بها تلك الرحلة التي قام بها الرحالة حقيقة،وجاب مختلف الأقطار،وهي تقع "ضمن مكان وزمان معين وينتقل فيها الرّحالة من مكان جغرافي محدد إلى مكان جغرافي آخر ". [3]

ويندرج ضمن هذا النوع من الرحلات،رحلات أخرى متعددة أشهرها :

[1]– صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافية المبصرة، منشأة المعارف، (د.ط)، الإسكندرية، ص ١١٢.

[2]– ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص٣٢.

[3]– محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية "دراسة"، منشورات اتحاد الكتاب العرب (د.ط)، دمشق ٢٠٠٢، ص٣٧.

أ- الرحلات العلمية:

وهي من أهم أنواع الرّحلات،كيف لا وأصحابها قاموا بها طلبا للعلم والمعرفة،وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى هذا النوع من الرحلات،وأشهر رحلة علمية وتعليمية وردت في ثناياه،هي رحلة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح الخضر عليه السلام،واصطحابه لغرض التعليم قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾. [1]

وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على الجد في طلب الرّحلة والترّحال لأجل طلب العلم،كما حث على زيارة مسجده الذي يعتبر المنهل الذي نستقي منه العلوم ونتزود منه،فما روي عنه صلى الله عنه وسلم حاثا على زيارته للعلم ما رواه أبو هريرة قال:"**من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه،أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر على متاع غيره** ". [2]

---

[1] سورة الكهف الآية ٥٩، ٧٥.

[2] – أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجه):سنن ابن ماجه، تح: بشار عواد معروف، مج١، ج١، دار الجيل، ١٩٩٨، ص ٢١٧.

وتعتبر الرّحلات العلمية من أشهر أنواع الرّحلات وأكثرها شيوعا،ويتعدد هذا النوع بتعدد أغراضه ومقاصده،فهناك الرحلات الاستكشافية والرحلات الدراسية،ورحلات لقاء العلماء والأخذ عنهم،ورحلات البحث والتنقيب والقراءة البحث.[1]

وهذا ما أشار إليه عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إذ قال:"والرحلة لابد منها في طلب العلم، و اكتساب الفوائد والكمال بلقاء العلماء والمشايخ ومباشرة الرجال ".[2]

ب-الرحلات الدينية:

تعد الرّحلات الدينية من أكثر الرّحلات شيوعا وانتشارا،وأعظمها شأنا،تقع ما بين هجرة وجهاد،وحج فالهجرة هي أولى أشكال الرّحلة، قام بها بعض المسلمين إلى الحبشة فرارا بدينهم من بطش قريش وظلمها،وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة فرارا بالدين وخوفا من الفتنة.[3]

وأما رحلة الحج فتقوم على وصف الرحلة،بمعنى ماذا يفعل الحاج من حيث ينوي الحج إلى أن ينتهي من مناسكه في البلد الحرام ويعود إلى أهله.[4]

ج- الرحلات التجارية:

لم تكن الرّحلات مقتصرة على الناحية العلمية فقط،والتي حظيت بالنصيب الوافر،بل كان للتجارة دور كبير باعتبارها " أمر يقتضي القيام بالسفر،وكان التجار يضربون في أراضي جديدة عن طريق البحر وقد وصلوا في سبيل ذلك إلى الصين وإلى الهند،وشواطئ افريقية الشرقية والغربية"[5].

---

[1]- سميرة أنساعد، مرجع سابق ص٢٤.

[2] -ابن خلدون عبد الرحمن ،المقدمة، تح : عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب،الدار البيضاء، (ط.١)،المغرب، ٢٠٠٥، ص٢٢٦.

[3]- عواطف محمد يوسف نواب، مرجع سابق، ص٣٣.

[4]- محمد الدبيسي، رحلة الحج، (ط١)،(د.م)، ٢٠١٥، ص ٠٥.

[5]- سيد حامد النساج، منشورات كتب الرحلة (قديما وحديثا، مكتبة غريب : (د.ط)، (د. ت). ص١١.

وقد يرتحل الإنسان لغرض العمل، وممارسة بعض المهن، أو لغرض طلب إعانات من دولة شقيقة، وتخليص من ديون عالق، وغيرها من الأسباب المرتبطة بطرق الكسب، والاقتصاد.[1]

ورحلة التجارة سواء كانت رحلة برية،أو كانت رحلة بحرية،قد وصلت المغامرة بكل تأكيد،وعرفت طريقها إلى أهدافها.

د-الرحلات الجغرافية :

اهتم العرب بوصف البلاد التي دخلت مع فتوحاتهم في حوزتهم،فتحدثوا عنها في كتاباتهم التاريخية الأولى،ودعاهم ما في القرآن الكريم من إشارات إلى الأمم السابقة أن يطلعوا على ما عند أهل الكتب السماوية قبلهم من أخبارها،وضمنوا ما عرفوا من ذلك من تفاسيرهم لآلي الذكر الحكيم وبمجرد أن أخذوا في العصر العباسي،ينتقون ما عند الأجانب من معارف وعلوم نقلوا ما عرفه الفرس والهنود والإغريق عن العالم القديم. وكان فيما نقلوا جغرافية (بطليموس). *

واتبع جغرافيو هم طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم،إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعهم وما بديارها من آثار وعجائب وقصّوا ما عندها من أساطير وخرافات،وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتبا أدبية،تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي تحت عينه وسمعه بأذنه،وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن يكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتبا جغرافية بالمعنى الذي نفهمه اليوم.[2]

هـ- الرّحلات الرسمية:

يضم هذا النوع كلا من الرّحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية، وهي خاصة بدوافع عديدة منها تفقد أمر الرعية أو تلبية طلب الحاكم في معاينة أماكن مجهولة أو بعيدة،والإتيان

---

[1]- سميرة أنساعد، مرجع سابق، ص٢٩.

* بطليموس (فلكي وجغرافي وعالم رياضيات عاش في القرن ١٢ ق. م).

[2]- صلاح الدين الشامي، مرجع سابق، ص ١١٣.

بأخبارها، فقد تكون في أطار التجسس،أو الاستطلاع،كرحلة " سلام الترجمان (٢٢٧هـ) التي رواها" ابنخرداذبةت٢٧٢ هـ"،والتي كانت بتكليف من الخليفة"الواثق بالله "؛ قصد معرفة حقيقة السّد الذي بناه ذو القرنين لعزل قوم يأجوج ومأجوج،كما يخص هذا النوع من الرّحلات النشاطات السفارية المختلفة،وأهمها توطيد العلاقات بين الدول العربية والدول المجاورة الغربية. [١]

ويدخل في باب التكليف الإداري، طلب بيانات عن البلدان التي استندا إليها الإسلام،وتقدير الثروات والضرائب،وتقديم التقارير،وقد أدت الرّحلات دورا هاما في تحقيق تلك الأنشطة التي تظم إلى مجال الجغرافيا الإدارية،أو كتابة تواريخ الأقاليم. [٢]

٢-الرّحلات الخيالية:

لقد توسع الإنسان برحلاته على مدى الدهور،ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية،فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل،فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودنى أخرى.

فهو اهتدى إلى الرّحلة الخيالية والتي هي من نسيج خياله،وتحدث ضمن مكان وزمان متخيلين غير حقيقيين،مغامراتها خارقة أما الهدف منها فهو التسلية طبعا وإثارة الخيال. وهذا النوع من الرّحلات عكس الرّحلات الواقعية التي يقوم بها الرّحالة حقيقة وهي تتمثل في:

أ-الرّحلة الأسطورية:

إن هذه الظاهرة الأدبية (الرّحلات الأسطورية) ليست جديدة،فقد أخذ الإنسان القديم على عاتقه إيجاد تفسيرات روحية وفكرية بما يحيط به من ظواهر كونية،وقد روت الأساطير كثيرا من مثل تلك الرحلات،ولعل أقدم رحلة خيالية تقدمها الأساطير هي رحلة الإله الخيالية

[١]- شوقي ضيف، مرجع سابق، ص٩.

[٢]-حسين محمد فهيم، مرجع سابق، ص٩١.

للقضاء على آلهة العماء(تيامات) أو (التنَين) وخلق الكون من أشلائها،وإجراء الأنهار والبحار من دمها. [1]

كما تتجلى الرحلات الأسطورية أيضا في" رحلة جلجامش ومسيرته للبحث عن الخلود،ورحلتي (أدابا و إيتانا) إلى السماء،وهبوط بعل إلى العالم الأسفل. . . ". [2]

كما تجلت الرّحلات الخيالية في الأدب العربي بشكل واضح،وهذا ما نلاحظه في المقامة الإبليسية لبديع الزمان الهمذاني، ورحلة التوابع و الزوابع لابن شهيد والتي سارت على منوال المقامة الإبليسية واستوحت فكرتها منها. [3]

ب-الرّحلة المغامراتية:

وتكون لغرض الاستطلاع،وهي خارجية نذكر منها رحلات (ابن فضلان،أبو أدولف،بن وهب القريشي،الفتيان المغامرين وغيرهم) وإن اختلفت الأهداف،منهاالسياسي لا يخرج عن نطاق التقريرية فيكون مغامرة الغاية منها التعرف على أنماط الحياة والمجتمعات المرتحل إليها " نصوص رحليه استكشافية تعلن عن قصدها الاستكشافي منذ البداية "

تبرز طابع العلاقة مع خطاب الفن الرسمي اتجاه الآخر عليها أو صقلها عن طريق المثاقفة و" البحث عن عناصر الاختلاف والتعدد التي تغذي النَص الرّحلي ".[4]واعتماد الوصف المرتبط بالحياة اليومية والصعوبات التي تواجهه في هذا النوع من الرّحلات التي تتبني أساسا على الرؤية المجردة للأشياء،فتأتي الصور يقينية أكثر منها احتمالية متجذرة في

---

[1]- محمد الصالح السليمان، الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث ١٩٩٩(دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د .ط)، ٢٠٠٠، ص٠٩

[2]-عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، الانتشار العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٩، ص٥٤.

[3]- محمد الصالح السليمان، مرجع سابق، ص ص١٣، ١٤.

[4]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية لنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ص١٥٣، ١٥٤.

المشاهدات،فتتحول الأوصاف إلى انطباعات وتأملات وإلى أخبار بحقائق عجيبة غير مألوفة.[1]

٣-الرحلات الشعرية و النثرية:

أ-الرحلات الشعرية:

لقد حاول أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي،الوقوف عند البعض من هذه الرّحلات الشعرية (الجزائرية)،سواء المكتوبة بلغة فصيحة أو مكتوبة باللغة العامية (الشعر الملحون). وأشهر من كتب في هذا النوع من الرّحلات: محمد بن منصور العامري التلمساني وعبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي ومحمد بن مسائب التلمساني الذي تندرج قصائده ضمن الشعر الملحون.[2]

ب- الرّحلات النثرية:

هي الرّحلات المصطلح عليها في الغالب،على عكس النوع الأول (الرّحلات الشعرية) ذلك أن باستطاعة الرّحالة تدوين انطباعاتهم عما شاهدوه وسمعوه في مختلف المدن والأقطار التي مروا بها.[3]

ولا شك أن هذه الرّحلات على اختلاف أنواعها (واقعية/خيالية) فإنها تصور لنا الحقائق أحيانا أو ترتفع إلى الكمالات، فالرّحلة على الحقيقة أساسا في تقديم الأماكن والاكتشافات وتنقل العادات دون أي تعديل أو تغيير ومنهم من ينقل المشاهد بنوع من الرغبة في التأثير الوجداني "ويجعل الرّحلة سمة أدبية لابد من أن تقف عند حد التسجيل أو التدوين أو الجمود".[4] وبذلك يصدق عليها ما يصدق على المدونة الأدبية من خصائص أسلوبية

---

[1]-فؤاد قنديل، مرجع سابق، ص٢٠٧.

[2]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠ -١٨٣٠، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ص٣٨٨.

٣- مرجع نفسه، ص٣٩٠.

٤ - سيد أحمد النساج،مرجع سابق ، ص٧.

وبلاغية التقاليد الكتابة العربية السائدة أو المعيارية وأن أنظمة التعبير "التي جمعت بين المكتوب المرسوم ،والشعر والنثر، الفصيح والدارجي،والعربي واللهجي".[1]

رابعا- دوافع الرحلة:

بما أن الإنسان حركي بطبعه،فإنه يهوى السفر والترحال،واتخذ من الرّحلة وسيلة للتنقل من قطر إلى آخر،ومن المؤكد أن رحلاته التي يقوم بها لم تكن من فراغ،بل كان وراء ذلك دوافع وأسباب تختلف باختلاف مقاصده ويمكن أن نجملها فيما يلي:

١-دوافع دينية:

ويتمثل في حث القرآن الكريم المسلمين على التأمل في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنّهار وحركة الشمس اليومية، وتغير أوجه القمر والتعرف على الأماكن والنظر في مظاهرها والبحث في مكوناتها فيقول تعالى:﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.[2]

كان الحج من أعظم بواعث الرّحلات،فإن ألوف المسلمين يتجهون كل عام من شتى أنحاء العالم الإسلامي إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر النبي،وكان الحجاج عند عودتهم إلى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها،والأحداث التي صادفوها،وقد كان النابهون منهم يدونون مشاهداتهم،ويعملون على أن ينفعوا المؤمنين بتجاربهم؛ فيصفون رحلاتهم،تسجيلا لفضلهم وهداية لغيرهم،ولفتا لنظر أولي الأمر إلى ما يجب إصلاحه. [3]

٢- دوافع علمية أو تعليمية:

وهذا الباعث أيضا له صلة بالباعث الديني أو هو نتيجة له،لأن طلب العلم مرغوب فيه مثاب عليه في الإسلام. ومن هنا اهتم العلماء منذ القديم بالرحلة،فقطعوا الصحاري بحثا

---

١ – عبد الرحمن مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة،ط١،الدار البيضاء،١٩٩٦، ص٢٦.

٢ – سورة الحج،الآية،٤٦.

٣– زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم، (د.ط)، القاهرة، ص١٠.

عن فائدة أو رجاء لقاء عالم،أو رغبة في تصحيح مسألة،حتى أصبحت الرّحلة أمرا لازما للعلم عامة،وللحديث خاصة. [1]

وهذا ما نوه إليه عبد الرحمان ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إذ قال:"والرّحلة لابد منها في طلب العلم،ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء العلماء والمشايخ ومباشرة الرجال". [2]بمعنى أن الدافع هو السعي وراء لقاء العلماء والمشايخ والاستفادة منهم، أو الإقبال على مراكز العلم في أي قطر من المعمورة، طبعا لمختلف العلوم، الفقه، الطب، الهندسة، الرياضيات، الفلك، الجغرافيا وغيرها.ولهذا وجدت الرّحلات العلمية التي قام بها رحالة كثر من بينهم عبد الله بن عباس الغزالي وابن منده والأحنف العبكري الشاعر،ولا نملك لمثل هؤلاء حصرا، فما أكثرهم، ومن قبيل ذلك أيضا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافية. [3]

وبهذا القصد أصبح لدينا ما يعرف بالرّحلات العلمية، أشهرها رحلات الكشوف الجغرافية وأهم الجغرافيين المسلمين الذين كان لهم الأثر البيّن في مجال الرّحلات، نذكر اليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والإدريسي. [4]

٣-دوافع سياسية:

وهنا فقد تكون الرحلة من أجل القيام بأعمال رسمية،خدمة للدولة التي ينتهي إليها الرحال،كالسفارات الرسمية،ورحلات البريد. . . إلى غير. [5]

٤-دوافع اقتصادية :

كان للتجارة واتساع طرق المواصلات والأمن السائد أثرها في التشجيع على شد الرحال والطواف في البلدان، وكانوا يشعرون في أي بلد يحلون فيه كأنهم في بلدهم وكانت منتجات الأندلس والمغرب ومصر والحبشة والجزيرة العربية وفارس ومنتجات الأقطار المحيطة ببحر قزوين، وبضائع الهند والصين تتدفق على مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق وبغداد

---

[1]- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج١، منشورات عكاظ، (د.ط)، (د.ت)، ص٧٨.

٢ -ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص٢٢٦.

٣ - فؤاد قنديل، مرجع سابق، ص ص ١٩، ٢٠.

٤ -عيسى على إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفية الجامعية،(د،ط)،الإسكندرية،مصر،٢٠٠٠،ص ٧٥.

[5]-ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص٢٨.

والموصل، كما أنّ قيام المستوطنات الإسلامية قد أحدث مراكز أعمال جديدة وفتح طرقات هامة،وهذه كلّها عواما سهلت حرية التنقل والترحال في أرجاء العالم المعروف لدى الرّحالة العرب المسلمون.[١]

وقد ساهمت حركة التجارة مساهمة فعّالة في اتساع مركز التنقل والترحال وكان للعرب علاقة تجارية واسعة مع الهند والصين وإفريقيا الداخلية، وشمال أوربا علاوة على حركتهم البحرية الهائلة عبر البحار والمحيطات المحايدة لهم فاستعملوا موانئ الخليج العربي ومناء عدن ومناء سراف.[٢]

فالتجارة وتبادل السلع كان أمرا يستلزم أو يستوجب الرّحلة،وذلك لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية،أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى،وتندرج في بلاد المسافر،أو فرارا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر وقد يكون للعمل.[٣]

٥- دوافع سياحية وثقافية:

تصدر عن رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته، وحب التنقل. وتغير الأجواء واكتشاف الجديد من خلق الطبيعة والبشر، وقد تكون لمعرفة المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات وغيرها.[٤]

٦- دوافع صحية :

فمن بين أهم دوافع الرّحلة،السفر للعلاج أو الاستشفاء،أو راحة النفس من ألوان العناء،وتخليصها من الكدر كالارتحال إلى المناطق الريفية ونحوها،وقد يكون هربا من الطاعون أو التلوث. [٥]

---

١ -البشير صفر، الجغرافية عند العرب نشأتها وتطورها، دار المغرب الإسلامي، (د.ط)،بيروت،١٩٨٤،ص٤٧.

٢ -محمد عباسة، حوليات التراث،مجلة ، العدد ١١،الجزائر،٢٠١١.ص٩٦.

٣-فؤاد قنديل، مرجع سابق، ص ٢٠.

٤-مرجع نفسه، ص ٢٠.

٥-مرجع نفسه، ص ٢٠.

٧- دوافع أخرى:

وقد يكون من بين أسباب الارتحال السخط على الأحوال،وضيق العيش،أو الفرار من العقوبة.[١]

ومهما كان الغرض من الرّحلة، فإنها في أغلب الأحيان سلوك إنساني حضاري، يؤتي ثماره على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، يقول أبو الحسن المسعودي:" ليس من لزم جهة وطنه وقنعا بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه،وإنارة كل نفيس من مكمنه".[٢]

إن السفر جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحتشد بالعلم والمعرفة، وتشحذ العقل والوجدان، وتزيد في الفهم و الإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة، وطلعة الجديد في كل شأن ومواجهة المفاجآت، وتحمّل مشاق الغربة والسفر، والاطلاع على الطبائع المختلفة والاعتياد على الغريب والتمرس بمعاملته، "فالرّحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان ".[٣]

---

[١]- فؤاد قنديل، مرجع سابق، ص ٢٠.

[٢] - المسعودي أبو الحسن علي ابن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج١،تقديم: محمد السويدي، موفم للنشر،(ط.١)،الجزائر،١٩٨٩،ص٣.

٣ - فؤاد قنديل،مرجع سابق، ص ٢١.

خامسا- مفهوم أدب الرّحلة وقيمته:

١- مفهوم أدب الرّحلة:

يعد أدب الرّحلة لون أدبيا ذي خصوصية تميزه عن غيره من الألوان الأدبية النثرية الأخرى،وهو يرد بتسميات أو مصطلحات مختلفة عند النقاد والباحثين،ومن بين هذه التسميات نجد ما يلي:أدب الرّحلة،أدب المذكرات والسير الذاتية،الأدب السياحي،الأدب الجغرافي ولعل أكثر هذه التسميات تداولا هو أدب الرّحلة أو أدب الرّحلات.

ولا شك أن تحديد مفهوم الرّحلة سيكون صعبا،نظرا لعدة اعتبارات أساسية منها: [١]

-غياب تقعيد واضح للمفهوم،سواء عند الرّحالة أو عند اللغويين العرب.

-وجود نصوص رحلية كثيرة ومتنوعة،الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كل الأنواع الرّحلية.وانفتاح النص الرّحلي على عناصر أخرى تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص.

وعلى هذا الأساس سنحاول تقديم مجموعة من الدراسات والاجتهادات،التي قام بها بعض الباحثين والنقاد،في محاولات للتعريف بهذا الأدب والتوصل إلى أهم ما يتميز به هذا الفن عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى.

عرف صاحبا معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب،أدب الرّحلات بأنه "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة،وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق،ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها،أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة،أو يجمع بين كل هذا في آن واحد". [٢]

---

[١]- شعيب حليفي، مرجع سابق، ص ص٨١، ٨٢.

[٢]-مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٨٤، ص١٧.

وأمّا الدكتور أنجيل بطرس فيرى أنّ " أدب الرّحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية،وهي الرّحلة التي يقوم بها رحّال إلى بلد من بلاد العالم،ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب... وهناك صفتان عامّتان لا بد من توافرهما في أدب الرّحلات،وهما:

أولا: أن يكون من يكتب الرّحلات رحالة بطبعه محبا للرّحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرّحلة يعكس روح الرّحلة والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بها".[1]

أماّ سيّد حامد النساج فيعرف أدب الرّحلات بأنه " ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرّحلة موضوعا له،أو بمعنى آخر: الرّحلة عندما تكتب بشكل أدبي نثري متميز،بلغة خاصة،ومن خلال تصور بناء فني له ملامحه وسماته المستقلة.[2]

وتحدث محمد يوسف نجم عن أسلوب الوصف في الرّحلات،فرأى أن" قيمته متأتية من أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التي تركها في نفسه: ناسه وحيواناته ومشاهده الطبيعية وآثاره،فهي بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة في أمكنة جديدة وبين أناس لم يكن له بهم سابق عهد.

فالرّحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها،ويجعل التعرف إلى دقائقها واستكناه خفاياها وكده(قصده)؛ فيخرج منها أكثر فهما واصدق ملاحظة،وأغنى ثقافة وأعمق تأملات... وشر ما يعتري هذه المقالة تدني الكاتب إلى العاطفة المسرفة،وتكلفه المواقف التي وقفها غيره أمام المشاهد التي يستوعبها بصره وبصيرته.[3]

---

[1]– ناصر عبد الرزاق الموافي، مرجع سابق، ص٣٨.

[2]–سيد حامد النساج، مرجع سابق، ص١٧.

[3]– سميرة أنساعد، مرجع سابق، ص٣٣.

ونجد أن أدب الرّحلات أو فن الرّحلة على العموم،هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب أو الرَحالة ماجرى له من أحداث،وما صادفه من أمور أثناء رحلته التي قام بها إلى أحد البلدان،مستندا إلى الوصف الدقيق لليوميات مع مشاق الطريق وأحوال السفر،مازجا المرئيات المحسوسة بالانطباعات الشخصية الوجدانية.

٢-قيمة أدب الرّحلات :

تعد كتب الرّحالة مصدرا هاما يتناول بعض جوانب الحياة، إن لم نقل جلها لاحتوائها على معارف متنوعة، الأمر الذي جعلها قبلة للعديد من الباحثين المتعدي المشارب، بغية نهل المعارف التي تهمهم. ولذا كان التجار العرب الذين يجوبون الأقطار ويقطعون الصحاري والبحار، مصدرا آخر لجمع المعلومات الجديدة وتمحيص المعلومات القديمة، وذلك على الرغم مما عرف من بخل التجار بمعلوماتهم وانطباعاتهم،ولكن الرّحلات التي كان يقوم بها الحجاج والعلماء الذين يقصدون الأماكن المقدسة ويزورون البلاد طلبا للعلم كانت أغنى هذه المصادر وأزخرها بالمعلومات الدقيقة.[١]

ولا شك أنّ للرّحلات التي قام بها العرب الأوائل أهمية بالغة،وهي أهمية ذات شقين يجدر بنا الإشارة إليهما:

أ-القيمة العلمية:

وتتأتى مما تحتويه معظم الرّحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية،والاقتصادية،وغيرها مما يدونه الرّحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان،من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة. بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع أو الاقتصاديين. إنه وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة علم الجغرافيا،فهو عندما يصف الممالك

١ – أبو الحسن على بن موسى بن سعيد، المغربي، كتاب الجغرافيا، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، الجزائر، ١٩٨٢، ص٣٠.

والبلدان والأصقاع والأقاليم والمدن والمسالك،وعندما يتحدث عن الطبيعة والمناخ،وظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعد من صميم الدراسات الجغرافية،إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا بالنسبة لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة. وما يقال عن الجغرافيا يقال عن التاريخ والأدب والآثار والاقتصاد والأديان والأساطير. ذلك أن الرّحلات سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة في مجتمع بعينه،ومرحلة تاريخية محددة.[١]

ب- القيمة الأدبية:

فتتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب،وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني. وبرغم ما يتسم به أدب الرّحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره،فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى.[٢]ممّا حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرّحلة عند العرب " خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي،تهمة قصوره في فن القصة".[٣]

وقد أفاد أدب الرّحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان،عن اللهو والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة،إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه،مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين في بعض عصورنا الأدبية. فلقد أثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته،فهو تارة علمي وتارة شعبي،وهو طورا واقعي وأسطوري على السواء،تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة.[٤]

---

[١]– سيد حامد النساج، مرجع سابق، ص ص ٧، ٨.

[٢]–حسني محمود حسين، مرجع سابق، ص ص٨ .

[٣] – شوقي ضيف، مرجع سابق، ص٦.

[٤]–حسني محمود حسين، مرجع سابق، ص ص٨، ٩.

و ثمة قيمة أخرى ألا وهي القيمة التعليمية،فهذا النوع من الأدب يعد أكثر المدارس تثقيفا للإنسان،وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين،كما يعتبر مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية،من خلال مخالطة الناس والأقوام والاجتهاد في دراسة أخلاق الشعوب وطباعهم ودياناتهم ونظم حكمهم،وهذا ما يساعد الفرد على إعادة النظر في تقاليد ونظم بلده.[1]

كما يعتبر أدب الرحلات " مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى،كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام هذا الأدب في تصنيفه الحديث".[2]

[1]– سيد حامد النساج، مرجع سابق، ص٨.

[2]– مجدي وهبة وكامل المهندس، مرجع سابق، ص١٧.

سادسا- الموروث الثقافيفي أدب الرحلة.

١-مفهوم التراث:

يمتلك عنصر التراث رؤيا خاصة لمكونات تكشف عن شبكة من العلاقات التي تتوافر في حضارة أمة ما تتلخص عندها تجربتها الإنسانية،هيكل التقاليد والأعراف والعادات والفنون والعلوم والأخلاق التي يشترك فيها الأبناء لتكوين أصالة تؤطر حضارتها مهمتها إنتاج قيم ونتاجات تتفرد بها وتلمح إلى خصوصية تضيف إلى ثقافتها الشيء الكثير.

ولفظة تراث تحمل في طياتها العديد من المعاني والدلالات، مما جعلها موضع اهتمام الكثير من الباحثين والدارسين لذا نجدها وردت بمعان مختلفة في مختلف المعاجم العربية،وإن كانت في النهاية لا تبتعد عن معناها الاصطلاحي.

أ-المدلول اللغوي للتراث:

جاءت كلمة التراث في المعاجم تحت مادة "ورث"وهو فعل ثلاثي وتدور معانيها حول المتأخر"الخلف"على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه "السلف"سواء كان السلف والده،أو قريب أو موصى ونحو ذلك.[١]

وقد جاء في الصحاح"الميراث أصله متوارث،انقلبت الواو ياء بكسر ما قبلها والتراث أصله التاء فيه واو ورثت الشيء عن أبي،أرثه بالكسر فيهما ورثا، ووراثة الألف متقلبة من الواو، ورثه الهاء،تقول أورثه الشيء أبوه،وهم ورثة فلان،وورثه توريثا،أي أدخله فيما له على ورثته ".[٢]

وعند تصفحنا للمعاجم العربية الأخرى نجد أن معظم معاني "التراث" تذهب إلى معنى "الإرث"وهو ما يخلفه الميت فيورث عنه.

---

[١]- حسن محمد سليمان، تراث العربي الإسلامي، دراسة تاريخية ومقارنة، دار المطبوعات الجامعية، (د،ط)، الجزائر، (د،ت)، ص ١٤.

[٢]-إسماعيل بن حماد الجوهري، معجم الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، ج١، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين، ط١، بيروت، ١٩٥٦.ص٩٥.

ب-المدلول الاصطلاحي للتراث:

"هو مجموع ما تتوارثه أجيال الأمة – أي أمة –من نتاج فكري وإنجاز مادي وما يضيف إليه كل جيل من اسهامات، وهو بهذا المعنى نشاط إنسان تراكمي متصل ومتواصل... ولعله بهذا المعنى أيضا وثيق الصلة بمفهوم الحضارة ".[١]

ويرى الجابري محمد عابد في كتابه "التراث والحداثة"أن استخدام الكلمة قديما اقتصر على ما يورث من المال أو حسب فمادة ورث تدل على الإرث المادي والمعنوي،إلا أن الكلمة اكتسبت في الخطاب العربي المعاصر معنى آخر فصارت تدل على الموروث الثقافي،وبذلك يكون الاستخدام الجديد مما يناسب احتياجات التعبير المعاصر والذي لا يخرج عن نطاق المعنى الموروث لأنه نابع من مفردات التفكير العربي وليس دخيلا عليه.[٢]

وصار التراث معبرا على كل ما يخص الإنسان العربي في شتى مناحي حياته،سواء كان ماديا أو معنويا فشمل بذلك"التقاليد والعادات والتجارب والخبرات والفنون،إنه جزء أساس من موقفه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي.[٣]

ويعتبر التراث حصيلة خبرات أسلافنا الفكرية والاجتماعية والمادية المكتوب والشفوي الرسمي والشعبي، واللغوي وغير اللغوي،الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والقريب".[٤]

وانطلاقا من هذا يمكن اعتبار التراث العربي هو ذلك " المخزون الثقافي المتنوع والمتوارث من قبل الآباء والأجداد والمشتمل على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية بما فيها من عادات وتقاليد سواء أكانت هذه القيم مدونة أو مبثوثة بين سطورها أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن،وبعبارة أوضح إن التراث هو روح الماضي وروح الحاضر وروح

---

[١]– مجلة الجامعة المغاربية، العدد الأول، السنة الثانية، ٢٠٠٧، ص١.

[٢]– الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩١، ص٢٢.

[٣]– عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار الملايين، ط٢، بيروت، ١٩٨٩. ص٦٣.

[٤]– محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، دمشق، ٢٠٠٢، ص١٥.

المستقبل بالنسبة للإنسان الذي يحيا به وتموت شخصيته وهويته إذاابتعد عنه أو فقدهلذلك نرى الإنسان العربي بصفة خاصة يتمسك بتراثه".[1]

٢-مكونات الموروث الثقافي:

وممّا لا ريب فيه، أنه لا يمكننا تصور قيام أي مجتمع إنساني بدون عادات وتقاليد اجتماعية،ذلك أن هذه العادات والتقاليد الاجتماعية تمثل الدعائم الأولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل بيئة اجتماعية. ولهذا يمكننا حصر عناصر الموروث الثقافي في ثلاثة عناصر وهي:

أ-المعتقدات والمعارف الشعبية:

لقد حظيت المعتقدات والمعارف الشعبية بمكانة كبيرة في مخيلة الفكر الإنساني،ومن المعروف أن لكل أمة معتقداتها ومعارفها الشعبية،فهي كالمرآة تنعكس عليها صورة الماضي التي ارتبطت بأفكار الناس حول الكون وما وراء الطبيعة أي تفسير الإنسان للأمور التي غمضت عليه. وتعتبر "المعتقدات والخرافات منفذا من المنافذ الأساسية لدراسة عقلية الشعوب ومدخلا مهما من أجل اقتحام فضاءاتها العقائدية والفكرية وممارساتها الطقوسية الباطنية والمختفية منها والظاهرة الجلية،فهي تترجم أيضا مستويات التفكير الشعبي وحركته داخل فضاءات مادية وروحية خاصة". [2]

ومن أهم موضوعاتها ما يشاع عن "الأولياء،الكائنات الخارقة(فوق الطبيعة)السحر الأحلام،الطب الشعبي،حول الجسم الإنساني،حول الحيوان،حول النباتات،الأحجار والمعادن،الأماكن غير المأهولة،الزمن وعلاقته بالظروف السائدة،الأوائل والأواخر

---

[1]- سيد علي إسماعيل، أثر التراث الغربي في المسرح المعاصر، دار قباء للنشر والتوزيع، (د.ط)، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٤٠.

[2]- محمد سعيدي، من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية – ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا– مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (د.ط)، الجزائر، ١٩٩٥،ص ص٦، ٧.

الاتجاهات،الألوان،الأعداد،الروح،الطهارة،النظرة إلى العالم،السلوك الفردي والجمعي في المناسبات المختلفة".[١]

ب-الأدب الشعبي:

تتعدد تعريفات الأدب الشعبي واختلفت فمنهم من عرفه بأنه" الأدب المجهول المؤلف،العامي اللغة،المتوارث جيلا بعد جيل بالرواية الشفوية ".[٢]

ومنهم من عرفه بأنه "مجموعة من المعارف والخبرات والفنون،عبّر الإنسان بواسطتها عن أحاسيسه ورغباته وتجربته، وجعلها هاديا له في تنظيم حياته الاجتماعية ويحافظ المجتمع على نقلها من جيل إلى الجيل الذي يليه ".[٣]

وهو من أبرز موضوعات التراث وأعرقها ويطلق عليه"الأدب الشفهي،الفن اللفظي، الأدب التعبيري ".[٤]

ومن أمثلته" المثل الشعبي، والقصة والأساطير والأغاني والألغاز ".[٥]وبالإضافة إلى ذلك" الأزياء الشعبية والطقوس المختلفة في مناسبات الزواج والميلاد والطهور والسبوع والحصاد " .[٦]

وهذا يعني أن الأدب الشعبي جزء من الثقافة الجماعية المستقرة في وعي الجماعة أو لا وعيها، ويشكل نمط سلوكها وطباعها ومعتقداتها. أما أهمية الأدب الشعبي فتكمن في اعتباره جزءا من كيانها وهويتها الوطنية ووجودها الحضاري. [٧]

---

[١]- فاروق أحمد مصطفى، الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دراسة ميدانية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٨، ص٢٩٩.

[٢]- محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، ١٩٦٧، ص ٤٦.

[٣]- نبيل علقم، مدخل لدراسة الفلكلور، جمعية إنعاش الأسرة، (د.ط)،رام الله، ١٩٧٧، ص١٤.

[٤]- عادل عبد الجبار زايد، معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية، مكتبة الناشرين، (د.ط)، لبنان، ١٩٩٧، ص١٤٩.

[٥]-سعد بن عبد الله الجنديل، معجم التراث حلقة السلاح، مكتبة الملك فهد الوطنية، (د.ط)، الرياض، ١٤١٦هـ، ص١.

[٦]-بدير حلمي، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، (د.ط)، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص٦٢.

[٧]- مجلة جامعة دمشق، م٢٤، العدد الأول و الثاني، ٢٠٠٨، ص١١٤.

ج-العادات والتقاليد الشعبية:

لكل شعب من شعوب العالم تقاليده وعاداته،تميزه عن باقي الشعوب،وكثيرا ما تكون هذه العادات وليدة حكايات شعبية. أو أساطير يتناقلها الأحفاد عن الأجداد،ويتمسكون بها خوفا من ضياعها في متاهات التقدم والحضارة. [1]

ومن التعريفات الشائعة للعادات والتقاليد ما عرفها به الدكتور رفيق حبيب من أنها " ممارس تعود الناس عليها وقلد بعضهم بعضا فيها،أي أنها ممارسات حدثت في ماض ما لا نعرفه،على وجه الدقة، وتم سريان تكرارها من شخص لآخر حتى أصبحت عادة وتقليدا". [2]

ويقول عالم الفلكلور"ريتشارد فايس"في موضوع العادات "هناك بعض صور التعبير البسيطة أو وسائل العرض التي تتكرر دائما كعناصر عادة احتفالية ابتداء من أقدم طقوس الإخصاب أو تقديس الموتى حتى أحدث عادات الأعياد التي نعرفها،فالممارسات السحرية الريفية القديمة والاحتفالات الحالية في المدن والمواكب الدينية والاجتماعات،تستخدم الأشكال نفسها وعناصر العادات نفسها،أما الفارق الوحيد في ذلك فهو المستوى الثقافي الذي تظهر فيه العادة والمناسبة التي تستخدم فيها". [3]

وتنحصر العادات والتقاليد كما حددها عبد الحميد بورايو في النقاط التالية: [4]

-دورة الحياة(الميلاد،الختان،الزواج،الوفاة).

-الأعياد والمناسبات بدورها العام(الأعياد الدينية،الأعياد الوطنية،احتفالات المناسبات الزراعية).

-المعاملات الاجتماعية بين أفراد الجماعة (الاستقبال،التوديع،الضيافة،علاقة الصغير بالكبير،علاقة الغني بالفقير،علاقة الذكر بالأنثى،العلاقة بالغريب،آداب المائدة،فض المنازعات والتحكيم).

---

[1] -أديب أبي ظاهر، عادات الشعوب وتقاليدها، دار الكتاب العربي، دار الشواف للنشر، ط١، ١٩٩٢، ص٣.

[2] -رفيق حبيب، المقدس والحرية، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٠٤.

[3] - جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار،(د.ط)، عنابة، ٢٠٠٣، ص٢١٥.

[4] - ينظر عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية التاريخ والقضايا والتجليات، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت)،ص ٣٨.

٣-أهمية العادات والتقاليد:

الإنسان صانع للعادات والتقاليد،حيث تحتم عليه طبيعته كإنسان أن يقيم صرحا من العادات والتقاليد،وهو إذ هذا إنمَا يرسي دعائم المجتمع،إنّ وسيلته إلى هذا هي الشعور بالحاجة إلى الإشباع،والقوة الخفية وراء المحاكاة.[١]

وتكمن أهمية العادات والتقاليد في أنها:

تشكل عنصر من عنا صر الثقافة وهو أمر يفرض توجيه مزيد من البحث والدراسة نحو تحليل مضمونه ومعرفة أشكاله وتنويعاته بين المجتمعات وداخل المجتمع الواحد،فممَا لاشك فيه أن العادات والتقاليد تختلف من مجتمع إلى آخر ولكل مجتمع عاداته وتقاليده الخاصة،بالإضافة إلى ذلك فإن العادات والتقاليد تحكم العلاقات الإنسانية وتمثل ضرورة من ضروريات الأمن والاستقرار والتكامل والتضامن والتعاون بين أفراد المجتمع على مختلف فئاته سواء على مستوى الأسرة أو الجماعة المحلية أوالقرية أو المدينة أو المجتمع ككل.

وإذا اعتبرنا القوانين الوضعية هي سلطة المجتمع المكتوبة فإن العادات والتقاليد هي سلطته غير المكتوبة ودستورها المحفوظ في الصدور، فإذا كان سلوك الفرد داخل المجتمع يخضع في كل تفاصيله لقواعد ومراسيم صارمة،فإن الكثير من مظاهر السلوك اليومية يدخل في نطاق ما نطلق عليه" العادات والتقليد الاجتماعية" أو الشعبية.

هذه العادات والتقاليد أجابت الفرد على كل الأسئلة التي تتعلق بسلوكه اليومي:كيف يستقبل ضيوفه؟ كيف يسلك في الشارع وفي المقهى وفي العمل؟ كيف يحي الناس وكيف يرد تحيتهم ؟ كيف يحتفل بزفاف أولاده ؟ ماذا يفعل إذا توفي أحد أقربائه أو أحد أصدقائه ؟كيف يقضي أيام الأعياد؟... وأسئلة عديدة تطرحها الحياة اليومية.[٢]

---

[١]- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار الكتاب العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت)، ص١٠٧.

[٢]- ينظر: عبد الإله عبد الجبار، عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة العربية السعودية، دراسة ميدانية أنثروبولوجية حديثة، ط١، جدة، ١٩٨٢، ص ص١٥، ١٦.

الفصل الثاني

الرحالة الغربيون ودورهم في الكشف عن العادات والتقاليد العربية

أولا: المناسبات والاحتفالات العائلية

ثانيا: المناسبات الدينية

ثالثا: عادات وتقاليد اللباس

رابعا: المأكولات العربية

خامسا: عادات الضيافة عند العرب

سادسا:عادات ومراسيم المآتم والجنائز

سابعا: المعتقدات والخرافات الشعبية

هناك عادات أصيلة عرف بها المجتمع العربي عمومًا، وأخرى لاتمت بأي صلة إلى مجتمعنا العربي، وإنما هي نتاج واقع حتمي فرض من طرف المستعمر وبعض الفئات الأجنبية التي عملت لصالحه كاليهود.

وتعتبر العادات والتقاليد كمثل الموروث الشعبي المتناقل من جيل إلى جيل، حيث تتبع هذه العادات في الأفراح والأتراح، وتتشابه وتتجانس وقلما نجد اختلافا جوهريا رغم تعدد الأقطار العربية واختلافها، ومن المؤكد أن الشعب العربي من مشرقه إلى مغربه يتميز بأنه مجتمع محافظ، إن كان في ملبسه، أو تقاليده، أو طعامه، أو أخلاقه السامية، وهذا ما استكشفناه في ثنايا نصوص الرحالة الغربيين الذين زاروا البلاد العربية ك" هاينريش فون مالتسان وريتشارد.فبيرتون وفندلين شلوصر، و وليام شالر و ج.أو.هابنسترايت...الخ.

فتحدثوا فيها عن تجاربهم الشخصية وعلاقتهم بأهلها وطبائعهم، كما تطرقوا إلى وصف العادات والتقاليد وأساليب الحياة في المدن والقرى والأرياف وقدموا بذلك صورة واضحة عن المجتمعات العربية وعاداتها وتقاليدها الشعبية.

أولا–المناسبات والاحتفالات العائلية:

١– الخطبة والزواج :

يعتبر الزواج سنة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى:﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾[1]. وهو سبيل المؤمنين استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى:﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن

[1]– سورة الرعد،الآية ٣٨.

مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيم﴾.[1]

والإسلام رغب في الزواج لبناء الأسرة بناءًا صحيحًا قائمًا على المودة والرحمة، والتعاون، وإحصان الزوجين، والمحافظة على الأنساب مع مراعاة الحقوق والوجبات، فالزواج رباط مقدس بين اثنين.

لقد بقيت مراسيم الخطبة والزواج مترسخة عند العرب عبر الأزمنة والعصور ولا سيما لدى سكان الريف،وهي عادات وتقاليد نابعة من طبيعة جغرافيا وتضاريس البلد المتنوعة، فتعددت الطقوس مع تعددها ولكن بصفة عامة تتشابه عادات وتقاليد الزواج في أغلب المناطق العربية، حسب ما أكده الرّحالة الغربيين الذين زارو البلاد العربية.

وتعتبر الخطوبة أولى مراحل الزواج، فبعد بلوغ الفتى السن الذي يؤهله للزواج تبدأ مرحلة البحث عن فتاة كي تكون شريكة له، وعادة ما تقوم بهذه المهمة الأم والأخوات أو القريبات أو الخاطبة في بعض الأحيان.

ومن عادات العرب تزويج النساء في وقت مبكر فجل الفتيات يتزوجن في سن الثانية عشر، أي قد يكون مع بداية البلوغ وما بعدها، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشر، وبهذا يمكن للمرأة العربية أن تصبح أمًا في سن الثالثة عشر، أما الفتاة التي تخطت السن المتعارف عليه للزواج، تكون في عداد المتأخرات بل العانسات، وهذا ما أكده هاينريش فون مالتسان أثناء رحلته إلى مدينة الأغواط بقوله "فالعذارى هن كل الفتيات الصغيرات اللواتي تتراوح أعمارهن بين عشر سنوات وثلاث عشرة، وأمهات في الرابعة عشر، وعندما يبلغن الثامنة عشرة، يكن قد ذبلن ".[2]

[1] – سورة النور، الآية، ٣٢، ٣٣.

[2] – هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج٣، تر: أبو العيد دودو ، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع ، الجزائر، ١٩٨٠، ص٢٣١.

الشيء نفسه أثبته وليام شالر بقوله:"والمرأة الجزائرية تصل إلى النضوج في وقت مبكر، ويحدث كثيرا أن تتزوج في سن الثانية عشر ولكنها تذبل بنفس السرعة، وقد بلغني أن المرأة الجميلة يبدأ جمالها في الزوال في سن الخامسة والعشرين وأنها عند هذه السن كثيرا ما تكون جدة"[١].والشيء نفسه أكده الرّحالة الغربي جيرار دي نرفال إذ هو الآخر لاحظ أن أغلب النساء المصريات يتزوجن في سن الثانية عشر في حين أن " الرجل الذي يبلغ سن الزواج ولا يتزوج لا ينظر له الناس في مصر باحترام، وإذا لم يستطع أن يبدي الأسباب المقبولة التي تضطره إلى البقاء أعزب فإن سمعته تتحمل نتيجة ذلك"[٢].

ومن بين شروط الزواج المتعارف عليها عند العرب –حتى لا يكون حراما – لا يسبق أن رأى أحد العروسين الآخر، وبعد التأكد من هذا يتفق الشباب مع الشخص الذي سيصبح صهرا له على المبلغ الذي سيدفعه له مقابل تزويجه بابنته ".[٣]

وهذا ما يعرف بالمهر، وهو عبارة عن مبلغ من المال يكون من حق المرأة ومن الأمور الواجبة في عقد الزواج، يدفعه الرجل ليستبيح به المرأة، وعندما يحصل الاتفاق بين الطرفين على قيمة المهر، فان كان الشاب أو عائلته قادرين على سداده، يتم العرس، وإن لم يستطع فإنه يفاوض في هذا المهر حتى يتيسر على أهل الفتى تسديده، " ويقدم هذا المال للفتاة عن طريق أبيها.وفي يوم محدد يذهب الأب مع ابنته والعريس إلى القاضي فيكتب هذا الأخير اسميهما، ويتقاضى على ذلك ريالاً واحدا كرسوم، فيتم العقد، وتشتري العروس بالثمن لباس وتبتاع ما تحتاج إليه من الأثاث والأدوات، التي تحملها إلى العريس يوم الزواج"[٤].

---

[١] – وليام شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (١٨١٦–١٨٢٤)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر ، ١٩٨٢، ص٧٩.

[٢]– جيرا ردي نرفال ، رحلة إلى الشرق، ج٣، تر: كوثر عبد السلام البحيري ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩، ص٢٣٤.

[٣] – عميراوي احميدة ، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر، دار الهدى ، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٨٩.

[٤] –فندلين شلوصر ، قسنطينة أيام أحمد باي، (١٨٣٢–١٨٣٧)، تر: أبو العيد دودو ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٧، ص٨٧.

وما لفت انتباه الرحالة الألماني مالتسان وهو في منطقة مازونة، أن صداق المرأة يدفع سواء أكان الخاطب عربي، أو فرنسي وغالبا ما كان يقع الاختيار وخاصة عند البدو على الفرنسي، لأنه يدفع مهرًا أكبر مما يدفعه العربي، وتأكيدا على ذلك يقول:" فإذا أراد الفرنسي أن يتزوج من عربية فعليه أن يدفع الصداق إلى أبويها مثلما يفعل ذلك الخطيب العربي، وكثيرا ما يقع الاختيار على الفرنسي لأنه يدفع مهرًا أكبر مما يدفعه غيره! والصداق الذي يدفعه الخطيب لوالدي خطيبة يتراوح بين المائة و الثلاثمائة فرنك ، وقلما يزيد عن ذلك"[١].

وبعد الانتهاء من مسألة المهر تقام حفلة عائلية" وهذه الحفلة عبارة عن قراءة السورة الأولى من القرآن، أي ما يسمى بالفاتحة "[٢].ثم " يتفقون على موعد العرس.وفي ليلة ذلك اليوم تصبغ العروس يديها بالحناء، وفي الصباح يحضر الطعام للضيوف "[٣].

ومن العادات الشائعة في قسنطينة أمسية العرس أنه " يأتي كل أقرباء العريس أمام بيت العروس وبأيديهم الفوانيس، وعندئذ تجلس وهي ترتدي رداءًا يلمع بالذهب، وهو ملك للمدينة، يعار مقابل مبلغ من المال في خزانة مغطاة بإزار أحمر وتحمل فوق بغل إلى بيت زوجها وتصاحبها الموسيقى، وتنتهي الحفلة كلها بوليمة ".[٤]

ولم تكن طلقات البارود هي الميزة الأساسية للأفراح وإنما كانت الزغاريد هي الأخرى بارزة في أفراحهم، يعبر بها النسوة بطريقتهن الخاصة ، والزغاريد النسوية يقابلها طلقات البارود الرجالية، فكل جنس له طريقة خاصة به في التعبير. وتصحب هذه الزغاريد نقرات الدفوف ودمدمات البنادير، ودقات الطبول، التي تضفي عل الحفل جوا من الفرح والبهجة، فهذا يعتبر من العادات والتقاليد التي تتميز بها الأعراس العربية.

---

[١] –هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج٢، تر:أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط١، الجزائر، ١٩٧٩، ص٢٣٨.

[٢] –هاينريش فون مالتسان ، ج٣، المصدر السابق، ص٦٨.

[٣] – عميراوي أحميدة ، المرجع السابق، ص ص٨٩، ٩٠.

[٤] –فندلين شلوصر ، المصدر السابق ، ص٨٧.

وفي هذا الصدد تقول إميليا إدواردز أثناء تجوالها في إحدى المناطق المصرية:" وهنا صادفنا موكب عرس مكونا من حشد من الرجال، وفرقة موسيقية وثلاثة أو أربعة من الحناطير المؤجرة التي تمتلئ بالنساء المحجبات، وقد أمكن تمييز العروس من بينهم، أما العريس فكان بين الرجال الذين كانوا يداعبونه وهو محاط بالطبول الضخمة التي تعوق تقدمه، بينما ترتفع جلجلة الدفوف ونقرات الطبول الصغيرة على أصوات الضحك والصياح.وقد سمعنا حلبة مرتفعة تصدر عن آلة تعطي أصواتا تشبه موسيقى القرب "[١].

وبما أن مجتمعنا العربي مجتمع محافظ فقد كانت العروس لا تحمل إلى زوجها إلا وعليها لحاف يغطيها فلا يراها أحد، ويرافقها في الموكب فوج من أقاربها وهم صغيرا وكبيرا يكرمون وتحسن ضيافتهم.

وتجنبا للاختلاط واحتراما للعادات والتقاليد فقد " كان الرجال يجلسون في منزل مستقل عن النساء اللاتي لا يتركن العروس وحدها ولا ينقطعن عن الزغاريد حتى يأتي العريس "[٢]. هذا ما أورده تيدنا في مذكراته. والشيءنفسه ذكره هاينريش فون مالتسان، عندما حضر إحدى الحفلات بالجزائر العاصمة.

وبعد كل هاته المراسيم تحمل العروس إلى بيتها، "ويدخل العريس إلى منزل عروسه فيجدها وحيدة جالسة على سرير. مزينة يغطي وجهها منديل من الحرير وبعد إتمام الزواج يدخل الأب ويخرج العريس ليعود إلى المدعوين. يجرد الأب أبنته، ويأخذ قميصها الذي يهدأ من روعه فيريه لكل ضيوفه ثم يرسله إلى الأصدقاء ليبرهن للجميع على عفاف ابنته".[٣]

ومن بين الرّحلات التي تحدث عنها الرّحالة الغربيين، حفلات الزواج اليهودية، إذ نجد أن الرّحالة الألماني هاينريش فون مالتسان يصف إحدى حفلات زاوج اليهود التي حضرها في مدينة قسنطينة، وقد اتسمت هذه الرحلة كما عبر عنها بالروعة والفخامة "فقد

[١] –إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل ، تر: إبراهيم سلامة إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص٥٥.

[٢] – عميراوي احميدة، المرجع السابق، ص٩٠.

[٣] –عميراوي احميدة، المرجع السابق، ص٩٠.

كانت العروس، وهي فتاة لا تتجاوز الحادية عشرة ولكنها تبدو مكتملة تقريبا، ترتدي لباسا مخمليا نفيسا، وابتدأت مراسيم الزواج بقص شعر العروس إذ لا يجوز لليهودية المتزوجة أن تحمل شعرها الخاص، إنمَا ينبغي لها أن تحمل شعرا مستعارا أو تشع على رأسها غطاء وأجلست العروس الصغيرة في وسط الغرفة، وكان شعرها الأسود مرسلا يغطي في روعة كتفيها الرائعين وثوبها النفيس.ثم اقتربت منها قريباتها، الواحدة تلو الأخرى، وأخذت كل واحدة منهن خصلة من شعر العروس وضفرتها، ثم أدارت حولها عصابات مخملية ملونة، وبعد حين اتخذ رأس العروس اليافعة منظر رأس شجرة مزينة في سوق سنوية، ثم حشر خاخام ضخم الجثة بليد المظهر وقطع شعرها بقسوة، ولكنه جمع بعناية، وقدمت لكل قريبة الضفيرة الصغيرة التي ضفرتها بنفسها وقطعت، وذلك لتحتفظ بها للذكرى.وغطيَ شعرها بغطاء مخملي أسود ثمين، خيطت فوقه وريقات من ماس.ثم بدأت المراسيم الحقيقية.حيث يقود العريس وهو فتى طويل القامة، نحيف الجسم، عروسه إلى مظلة ثمينة وهناك أدخل خاخام خاتم العريس في إصبع العروس ثم أحضر كأسان مذهبان، فشرب العريسان الخمر من أحدهما، ولمَا انتهيا من الشرب، رمى العريس بالكأس فوق الأرض وداسها بقدمه.وبذلك أصبحا زوجين فكسر الكأس هو خاتم ارتباطهما، وبعد الانتهاء من كل هذه المراسيم ذلك أحضرت أنواع الحلويات من جميع الأشكال والأنواع تكفي لإطعام جميع الحاضرين فأكلوا منها بنهم.[1]

٢- الختان:

يعتبر الختان (الطهور)من أهم الأحداث في حياة الولد المسلم، وللختان ما يميزه من عادات وتقاليد تختلف من منطقة إلى أخرى، فهو يعتبر بمثابة عرس مصغر للطفل، ويتم التحضير لهذا اليوم أسبوعا من قبل من حلويات وأطباق شهية، وكانت ولا تزال مراسيم هذا الاحتفال سائدة في مجتمعنا العربي إلى يومنا هذا، وتعتبر عملية الختان عند العرب من

[1] – هاينريش فون مالتسان ، ج٣، المصدر السابق ، ص ص٥٠، ٥١.

عوامل نظافة البدن وهي عملية خاصة بالذكور ولا يوجد وقت محدد للإختتان. وكلمَا كان مبكرا كان أفضل إلا أن معظم الأولاد يختتون بين سن السادسة والثانية من أعمارهم.ومثلما تؤخذ العروس إلى بيت زوجها في موكب زفة، ومثلمَا يزف العريس إلى زوجته، يزف المختون على صهوة جواد في موكب احتفالي مصحوب بالزغاريد، وهو يرتدي ثيابه الجديدة، وهذا ماوصفه هاينريش فون مالتسان عندما حضر إحدى حفلات الختان في منطقة زواوة بالقبائل.

حيث لاحظ أن "حفل الإختتان يبدأ بموكب الطفل الراكب على حمار ومعه جماعة لضرب الطبل والعزف على الناي، والتغني بغناء حاد مرتفع، وهو موكب طويل والطفل وسطه وقد زين بعصابات حمراء ملتمعة كالذهب حسب ما تقتظيه الحفلة، فيبدأ الرقص الذي يعتمد على القدمين والرجلين أكثر بقليل من الرقص الحضري المرافق للزغاريد، والموسيقى، والغناء والكل يشارك في الحفل".[1]

هذا ويرافق الحفل عادات معينة حينما يحضرها كبار الشيوخ الذين يتنافسون على تقديم الهدايا للطفل، ذلك أن عليهم أن يظهروا كرما بالغا، بين المدعوين للحفل. ويتم تقديم الهدايا كما عبر عنه هاينريش فون مالتسان بشكل علني فيقف صاحب الفوطة المكلف بجمع المال، ويضع المال المقدم في هذه الفوطة الموضوعة في وسط البيت وسط الحاضرين ويعلن صاحب الهدية المالية ويدعو الناس إلى الكرم ففي البداية تكون الهدايا صغيرة وثم تكبر، والمكلف بجمعها يعلن قائلا:"لقد تبرع فلان بثلاث بجوات جازاه الله خيرا.فتعلو زغاريد النساء تحية للرجل الكريم فيبدأ شيوخ الزواوة بتقديم هداياهم الثمينة، فيبدأ التنافس وتبدأ الزغاريد بالتعالي، ويكفهر الجو ويمتلئ بالغضب ، وتشرع أكياس النقود بالتساقط الواحدة تلو الأخرى وكل واحدة أعلى من الثانية ولا ينتهي الحفل إلى حين يتصادف سقوط كيسين بهما نفس المبلغ في نفس الوقت.[2]

[1]–هاينريش فون مالتسان ، ج٢، المصدر السابق ، ص ص١٥٨، ١٥٩.

[2] – هاينريش فون مالتسان ، ج٢، ص ص١٥٩، ١٦١.

هذا وقد ذكر هاينريش فون مالتسان أنه في "العادة النقود المقدمة لصاحب الحفل يعاد منها ما هو زائد عن الهدايا المقدمة من طرفه في حفلاته التي أقامها، ومعها زيادة كتعبير عن شكره كما أضافه من شرف له بحضوره".[١]

ونفس العملية تتكرر في كل حفل ختان عندهم، وكلّما كان صاحبه ذا شأن كبر الحفل وحضرته فئات المجتمع المهمة من كل الأعراش ليكثر التنافس أكثر بعروشهم فالكل يظهر كرم عرشه ولا يرضى بأن يظهر بأقل من أولئك المدعوين معه ليصبح الحفل بذلك قضية شرف العرش بأكمله.ويرافق كل هذا الحفل وليمة كبيرة للحاضرين مكونة كما هو معتاد من الكسكس المسقى باللحم والخضر.

ثانيا-المناسبات والاحتفالات الدينية:

١- شهر رمضان:

وهو من أبرز المناسبات الدينية، التي وقف عندها الرّحالة الغربيين بكل تمعن وسجلوا كثيرا من العادات و التقاليد التي سار عليها المجتمع العربي. واستعداد المسلمين لاستقبال شهر الصوم يبدأ مبكرا وبفيض من الشوق، حيث يستعدون له بالصيام في شهر شعبان الذي يبشرهم بهلال رمضان، ولكن إذ ما آذن شهر شعبان بالمغيب يحلق الناس وعلى محياهم بسمة مضيئة بدخول شهر رمضان شهر الخير والبركة والغفران والعتق من النيران. فبقدوم هذا الضيف تزين الشوارع بالأنوار والمصابيح، كما يطلق البعض الألعاب النارية، بأنواعها الجميلة، ويزداد الإقبال على المؤكلات والمشروبات وخاصة الحلويات التي يكون لها طابع ومذاق مختلف في هذا الشهر ويزداد الإقبال عليها بشكل غير عادي، وأمَا عن الحركة فلا تهدأ أثناء النهار وحتى مطلع الفجر.

وهكذا كان العرب يحتفلون بشهر رمضان مهما اختلفت مشاربهم، وهذا ما لاحظه أكثر من رحالة فالرّحالة بيير جوردا أبدى إعجابه بالأجواء الرمضانية التي شاهدها عند

[١] – هاينريش فون مالتسان ، ج٢،المصدر السابق، ص١٦١.

العرب في البلاد الإسلامية، "ففي رمضان يتم الصيام بكرنفال طوال الشهر المقدس كله، حيث يمتنع المؤمنون عن الطعام، والتدخين ، والشراب طوال النهار.وتكون المدينة مضاءة، ويعكس البسفور مسبحات من النار ترسمها القبب، والمنائر، والشوارع التي كانت لا يحي موتها أثناء النهار سوى الكلاب غير أنه حينما يضرب المدفع إطلاقته معلنا نهاية الصوم. تدب في المدينة حيوية مرحة، إطلاقات مدفعية ونار كنار البنعال تلمع فوق المنائر مثل فنارات البحر:(ألعاب نارية من الماس والزمرد والسافير والياقوت الأحمر) تتفرقع على مبعدة ثلاثة أو أربعة فراسخ، وعلى ساحة الطوب، يتسارع البلغار، والشركس، والجورجيون، والأرناؤوط، واليونانيون الأتراك بروندوكانهم وقفاطينهم فيشترون اللبن، والحلويات والعصير، والمكسرات، فتسمع الدرابك وهي تشخر، والمزامير وهي تقوقئ، ويستمر في الفضاء الأزرق لليل هذا الكرنفال، حتى شعاع الصباح".[1]

ويحدثنا فندلين شلوصر عن أجواء رمضان في قسنطينة، إذ أنه "وبمجرد رؤية الهلال يعلن عن بداية الصيام بطلقة مدفع، ويبدأ الإمساك في الثالثة صباحا بعد صلاة الفجر، فينقطعون عن الأكل والشرب، ولا يضعون الماء في أفواههم عند الغسل، ولا يدخنون ولا يستعملون السعوط ويتحرزون من شم الورد، وكثيرا ما يرفض المريض تناول الدواء، وإذا أرغم على الإفطار، فإنهم يصمون تلك الأيام فيما بعد، وفي المساء يعلن عن الإفطار بطلقة مدفع أيضا ويستطيع المرء أن يرى بعضهم واقفين في الشارع، ينتظرون طلقة المدفع والآذان. وبما أنهم يعانون كثيرا من الجوع أثناء النهار، فإنهم يأكلون كثيرا في الليل".[2]

ولرمضان هيبة وجلالة عند كل المسلمين فكلهم يسعون وبشتى الطرق إلى مرضاة الله والملاحظ أن "أكثر الشبان دعارة وفسقا ليستقمون في شهر رمضان وتتسم أعمالهم بالصلاح، فهم أيضا يصومون نهارهم ولا يأتون المفاسد والآثام التي تعودوا إتيانها في

[1] – بيير جوردا ، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية، تر: مي عبد الكريم علي بدر ، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سوريا، ٢٠٠٠، ص ص٤٣، ٤٤.

[2] – فندلين شلوصر ، المصدر السابق، ص ٨٥.

الشهور الأخرى، والمسلم بصورة مطلقة يأخذ رمضان مأخذ الجد ".[1]هذا ما وجده هاينريش فون مالتسان عند المجتمع القسنطيني.

والشيء نفسه لفت انتباه رتشارد ف بيرتون في مصر فقد رأى أن "الطبقات الدنيا والوسطى تؤدي شعائر هذا الشهر بإخلاص شديد رغم قسوتها، فلم يجد مريضا واحدا اضطر ليأكل حتى لمجرد الحفاظ على حياته رغم المعاناة الشديدة بسبب هذا الحرمان الشامل.بل وحتى السفلة والآثمين الذين كانوا قبل رمضان قد اعتادوا على السكر والعربدة حتى في–أوقات الصلاة–قد تركوا ما كانوا فيه من إثم فصاموا بل وصلوا".[2]

وغالبا ما تتغير طباع العرب في هذا الشهر وتتحول من اللطافة والحسن إلى الغلظة والخشونة، وربما يعود السبب في ذلك إلى امتناعهم عن الطعام والشراب والتدخين واستنشاق السعوط، يقول عن ذلك بيرتون:"إنّ أصوات المسلمين الصائمين التي لم تكن – قبل رمضان – من بين أرق الأصوات، قد اكتسبت –خاصة في فترة ما بعد الظهيرة– بحة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب، فالرجال يلعن بعضهم بعضا، ويضربون النساء أمَا النسوة فيلطمن الأطفال ويسئن معاملتهم، وقلما أن تستطيع قضاء عشر دقائق في أي حي بالقاهرة دون سماع منازعات عنيفة فالكراكونات أو المخافر مليئة بالسادة الذين ضربوا نساءهم ضربا مفرطا".[3]

ولشهر رمضان سحره الخاص في المدن والقرى العربية، التي تتحول طوال الشهر إلى أسرة واحدة، يجمعها نداء الآذان بالصلاة، وهو يرفع من مئات المآذن التي تنتشر في ربوع البلاد العربية ومع أذان المغرب يخرج أبناء المسلمين، من كل حدب وصوب يتجهون إلى المساجد للأداء الصلاة التي يحرصون عليها، وبعد العودة من أداء الصلاة يشرعون في

---

[1] – هاينريش فون مالتسان ، ج٣، المصدر السابق ، ص٦٣.

[2] –ريتشارد.فبيرتون ، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ج١، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤، ص ص٧١، ٧٢.

[3] – المصدر نفسه ، ص٧٢.

تناول الإفطار، وعادة ما يتكون من وجبة خفيفة، تختلف من منطقة لأخرى كحبات من الرطب ورشفات من القهوة العربية، وقليل من اللبن، وعن موعد اقتراب المغرب بالقاهرة يقول بيرتون:"وكأنها أفاقت من غشيتها، فيطل الناس من النوافذ والشرفات ليرقبوا اقتراب ساعة خلاصهم.وبعض الناس يصّلون ويبتهلون وآخرون يسبحون بينما آخرون يتجمعون في جماعات أو يتبادلون الزيارات لقتل الوقت حتى يحين ميعاد الإفطار، وعند سماع طلقة مدفع الإفطار، يجلجل المؤذن بآذانه الجميل داعيا الناس إلى الصلاة وينطلق صوت المدفع الثاني.فيصيح الناس الإفطار !الإفطار ! وتعم همهمة الفرح في أنحاء القاهرة الصامتة".[1]

وقد ميز بين إفطار الفقراء والأغنياء فقال "والفقراء يأكلون وجبتهم بنهم تام، أمَا الأغنياء فيفطرون بوجبة خفيفة عبارة عن قليل من الخبز والفاكهة سواء طازجة أو مجففة ولكنهم يفضلون بشكل خاص البطيخ والحلوى أو بعض الأطباق سهلة الهضم كالمهلبية وهي عبارة عن حليب خفيف هلامي القوام ونشاء ومسحوق الأرز ثم يدخنون الشيشة ويشرب الواحد منهم قدح قهوة أو كوب شربات".[2]

وبعد الفراغ من الإفطار يشد الصائمون الرّحال إلى بيوت الله لأداء صلات التراويح، في جماعة حيث تشهد هذه المساجد ازدحاما كبيرا بالمصلين، وعقب الصلاة يجتمع المصّلون في حلقات يستمعون فيها إلى بعض الدروس، والمحاضرات الدينية التي عادة ما تدور حول أفضال الشهر الكريم.فكل هاته العادات والتقاليد مترسخة عند العرب، ولا نجد اختلافا فيها ومهما تعددت أقطارهم فالإسلام يجمعهم. وقد وصف جيرار دي نرفال العرب بأنهم"قوم طيبون لا يكتفون في سهرات رمضان بالاستماع إلى الرواة وبرؤية القراقوز فإن لديهم أوقات للصلاة تسمى"ركعات" ترتل فيها في كل مرة عشرة آيات من القرآن.وينبغي في كل ليلة تأدية عشر ركعات آيات من القرآن.وينبغي في كل ليلة تأدية عشر ركعات سواءفي المساجد، وهو الأفضل، أو في البيت أو في الشارع إذا لم يكن للمرء بيت، كما يحدث لكثير

[1] – ريتشارد.ف.بيرتون، المصدر السابق، ص ص٧٤، ٧٥.

[2] – المصدر نفسه، ص ٧٥.

من الناس الذين لاينامون إلاَ في المقاهي، وعلى ذلك فإن المسلم الحق يجب أن يرتل مأتي آية أي ستة آلاف آية في الليالي الثلاثين، ولا تعتبر الرواية أو المسرح أو النزهات إلاَ نوعا من الترويح بعد هذا الواجب الديني".[١]

وبينما يحاول البعض أن يستفيد من هذا الشهر بالتقليل من الأكل والإكثار من الطاعات كالتصدق، وتقديم وجبات الإفطار للمحتاجين، وقيام الليل وقراءة القرآن الكريم، هنالك فئة أخرى تقضي معظم الليل في السهر والتزاحم على المقاهي" وتمتلئ الشوارع بحشود من الحواة الممثلين الفكهين وينخرط كثيرون في المسرات، حاملين في أيديهم غلايين التدخين المعتادة، ويتخذون من الأسواق التي تضل مفتوحة حتى ساعة متأخرة من الليل متنزها لهم ومن المقاهي مجلسا يثرثرون ويستمعون لحكايات الرواة، والمغنين، والوعاظ المتجولين.٢ وتستمر هذه السهرات الرمضانية إلى غاية"انطلاق مدفع السحور لتنبيه المسلمين بوجوب الاستعداد لتناول طعام السحور، وهو بمثابة إفطار مبكر، تفرش فيه السفرة ببقايا وجبة المساء، ويقصد بها طعام الإفطار وفي بعض الأحيان يكون ذلك قبل أن تستعد المعدة؛ لأنها لم تكن قد هضمت الطعام الذي تناولته بعد المغرب، ولكن التعود هو كل شيء، فالشهية وقف على التعود ومن دواعي الاحتياط في سحوره تناول أكبر قدر من الطعام يستطيعه حتى ينطلق المدفع الثاني معلنا الإمساك ثم يرفع آذان الفجر في شهر رمضان مبكرا على غير العادة".[٣]" فيعلو الصوت الشجي للمؤذن منبعثا من شرفة المئذنة " حيَ على الصلاة...حيَ الصلاة...حيَ على الفلاح...حيَ على الفلاح.." وفي آذان الفجر تضاعف عبارة "الصلاة خير من النوم، وعندئذ يهب المسلمون الأتقياء واقفين متمتمين:" لبينا دعوتك ياربنا.. لبينا دعوتك ياربنا".[٤]

---

[١] –جيرار دي نرفال ، المصدر السابق ، ص٢١٥.

[٢] –ريتشارد.ف.بيرتون، ص ص ٧٥، ٧٦،

[٣] – المصدر نفسه ، ص ٧٣.

[٤] – المصدر نفسه ، ص ٧٨.

هذا ما وصفه ريتشارد ف بيرتون بكل دقة ، موضحا عادات وتقاليد المجتمع المصري حين حط رحاله بمصر.ولا يعتبر شهر رمضان شهر الصيام فحسب، وإنمَا هو كما وصفه هاينريش فون مالتسان " شهر الأفراح والسهرات أيضا فلياليه عامرة بالبهجة والسرور والمرح، خالية من المحرمات بحيث لا وجود للراقصين والراقصات ولا تعزف الموسيقى إلاَنادرا ، فالاحتفالات تقتصر على تناول الأطعمة وتبادل الأحاديث الودية".[1]

وهكذا ليالي العرب خلال هذا الشهر الفضيل، تختص بعادات نابعة من تعدد وتنوع المناطق العربية التي تشترك في كثير من التقاليد.

٢-عيد الفطر:

بعد اقتراب انقضاء هلال رمضان تبدو العيون حزينة، ولسان حالها يقول:"ذهب الحبيب" دون أن يخفي هذا الحزن فرحة مرتقبة بضيف جديد وهو عيد الفطر، فهذا الأخير يأتي ليمثل فرحة للمسلمين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها.وقد تختلف العادات والتقاليد وتتباين اللغات والألسنة ، ولكن تبقى القلوب موحدة في شتى أنحاء البلاد الإسلامية تجمعها مناسبة واحدة.وعن كيفية استقبال عيد الفطر المبارك في مدينة الجزائر يقول الرّحالة الألماني ج.أوهابنسترايت:"ومع نهاية شهر رمضان وعند رؤية هلال العيد ينقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر رمضان وحلول العيد، الذي يعرف لدى الأتراك بيرم وفي لغة الفرانكا يطلق عليه لفظ باسكا لأنه يأتي على منوال عيد الفصح لدى الناصرى، وقد جرت العادة في صبيحة اليوم الأول من عيد الفطر أن يذهب الناس إلى إلقاء السلام وتقديم التهنئة".[2]

[1] – هاينريش فون مالتسان، ج٣، المصدر السابق، ص ٦٣.

[2] –ج.أو.هبنسترايت ، رحلة العالم الألماني ج.أو. هبنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، (١١٤٥هـ، ١٧٣٢م)، تر: ناصر الدين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، تونس، ٢٠٠٧، ص٤٨.

ففي هذا اليوم يهنئ الناس بعضهم بعضا على إتمام شهر الصيام وعلامات الفرح والبهجة مرسومة على محياهم، "فيقبل الحضر والفلاحون، أصدقاء وغرباء، بعضهم بعضا في الرأس أو في الكتف اليمنى ويتبادلون التهاني".[1]

تبدأ استعدادات العيد عند العرب مبكرا، إذ يقتنون ما يحتاجونه من ألبسة وأطعمة وغيرها من ضروريات، ويتم الإعداد لشتى أنواع الحلويات، وقبيل العيد يتم جمع المال والصدقات وتوزيعها على الفقراء، ومع أول ساعة من صباح العيد، يجتمع الناس لأداء صلاة العيد ، وبعد ذلك يقومون بتهنئة بعضهم بعضا في المسجد والأهل والأقارب، وتقديم التهاني الخاصة مثل "كل عام وأنتم بألف خير" وغيرها ويتجاوزون عمًا سلف وعمَا كان في السابق وغالبا ما يكون الرجال والنساء في كامل زينتهم من ملابس جديدة.وفي هذا اليوم يذهبون لزيارة القبور، والترحم على الأموات وقراءة القرآن على قبورهم.

وقد رصد الرّحالة الغربي ريتشارد ف بيرتون بعض مظاهر أفراح العيد في مصر"فبعد إطلاق المدافع من القلعة معلنة عن انتهاء متاعب الصوم، وجمع الناس زكاة الفطر في اليوم الأخير من شهر رمضان للفقراء بواقع قرش ونصف القرش عن كل فرد من أفراد الأسرة، بما في ذلك العبيد والخدم كرب الأسرة سواء بسواء. واليوم التالي وهو أحد أيام ثلاثة يقال لها أيام العيد الصغير(أو عيد الفطر)، يستيقظون قبل الفجر ويغتسلون و يتوضؤن، ويتخذون سبيلهم للمسجد لأداء صلاة العيد والاستماع إلى الخطبة التي تحث على المرح ولكن برزانة ووقار.وبعد ذلك يأكلون ويشربون بإسراف. كما لا ينسون موتاهم ويزورونهم في المقابر، أمَا الخيام والمقاهي التي أعدت على عجل زاخرة بالرجال في أروع ملابسهم وهم يستمعون إلى المغنيين والعازفين ويدخنون ويثرثرون.وقد حفت الطرقات بموائد الطعام، ومحلات بيع الحلوى، كما يتخذ القاهريين في هذا اليوم من أخواض النخيل الطويلة زينة لقبور آبائهم وأصدقائهم.ومن العادة أنه إذا التقى صديقان ألقى الواحد منهما بنفسه بين

[1] – فندلين شلوصر ، المصدر السابق ، ص٨٦.

أحضان الآخر وكأنهما مصارعان في عناق غير منقطع ثم يلتصق خداهما برقة، ويشبعان الهواء بأصوات قبلاتهما، والتحية في مناسبة العيد هي: "كل عام وأنتم بخير"ثم يأتي دور الأمنيات والتوقعات الطيبة، و أما بالنسبة للشخص المتدين فإن المرء يتوقع منه البركة ودعاء موجز".[١]

وأكثر ما يميز هذا العيد كما يرى مالتسان هو بهجة الأطفال وفرحتهم به وهم يتسلمون العيدية من الكبار، فينطلقون بملابسهم الجميلة فرحين ولهذا يعتبر " العيد الصغير في الغالب عيد الأطفال، وعلى هذا الأساس يمكن مقارنته بعيد الميلاد عند الألمان، أو السنة الجديدة عند الفرنسيين، ففي هذا اليوم تقدم للأطفال هدايا أهمها الفلوس، ويكفي عادة صوردي واحد أو صورديان ينفقونها أو يشترون بها لعبًا، والصوردي هو تلك الهدية التي غالبا ما يفضلها الأطفال على غيرها. وأطفال العرب متواضعون ومهذبون على الأغلب ، ويمتازون بهذا عن تلك المسوخ التي يطلق عليها اسم الأطفال الفرنسيين، أما العرب الصغار فهم يسلكون سلوكا مهذبا في أغلب الأحيان".[٢]

٣-عيد الأضحى :

عيد الأضحى أو " العيد الكبير " كما تحب بعض البلدان تسمية، مناسبة دينية ثقافية اجتماعية، تختلط فيها الأجواء الإيمانية والتقاليد الثقافية مع العادات الموروثة حيث لكل بلد طقوسه وتقاليده، ويوافق هذا اليوم العاشرة من ذي الحجة بعد انتهاء وقفة عرفه ويسمى" عيد بيرم الذي يعرف أيضًا بعيد الخروف لأن فيه يتم ذبح الخرفان وأكل لحومها بصفة فردية أو جماعية، وهذا العيد يشبه إلى حد ما عيد الفصح لدى اليهود فالمسلمون يحيون هذه المناسبة إجلالا لتضحية إبراهيم بالخروف بدل ابنه إسماعيل تقربا من الله تعالى كما ورد ذلك في القرآن الكريم ".[٣]

---

[١] – ريتشارد.فبيرتون، المصدر السابق ، ص ص١٠١، ١٠٣.

[٢] – هاينريش فون مالتسان ، ج٣، المصدر السابق ، ص ص ٦٦، ٦٧.

[٣] –ج.أو.هبنسترايت، المصدر السابق ، ص ٧٩.

والاحتفالات بعيد الأضحى لا تختلف عن الاحتفالات في عيد الفطر غير أنّ ما يميزها هو ذبح الخروف "فعيد الفطر الذي يتوج شهر الصيام عند المسلمين، مثل عيد الأضحى الذي يتوج شهر الصيام عند المسلمين، مثل عيد الأضحى الذي يأتي بعده بشهرين وعشرة أيام، مناسبة جليلة تعلنها طلقات المدافع المدوية ، ويطلق المسلمون فيها العنان للفرح والسرور ".[١]

وفي هذا اليوم يتوجه الرجال إلى المساجد لأداء صلاة العيد، وبعد الانتهاء يتسابق المصلون إلى بعضهم تسليما واحتضانا وتهنئة، وبعد ذلك يشترك الجميع في نحر الأضاحي تقربا من الله تعالى، وبعد عملية الذبح فإن الأكل يختلف من منطقة إلى أخرى إن لم نقل من عائلة إلى أخرى، فلكل أسلوبه الخاص ولكن المتفق عليه أن الكل يشوي اللحم، حيث تقطع الأضحية إلى قطع توزع جلها على الأهل والأقارب والمساكين، ويبقي المضحى بعضا منها لعائلته، وتعد هذه الظاهرة أهم ما يميز عيد الأضحى عند المسلمين. وهذا ما يشد انتباه الرحالة جيراد دي نرفال حيث لاحظ أنّ " الاحتفال الرئيسي يرتكز في ذبح شاة كأضحية وقد حدث ذلك في جميع بيوت المسلمين، وبعد الأضحية اندفع الجميع نحو المأكولات والمرطبات. وكانت الفطائر والكريمة المحلاة بالسكر والمقليات والكباب، وهو الصحن المفضل لدى الشعب ويتكون من قطع من لحم الضأن المشوي، تؤكل بالبقدونس مع شرائح مقطعة من الخبز الخالي من الخميرة، كانت توزع على الجميع نفقة الشخصيات الهامة. وفوق ذلك فقد كان في استطاعة كل فرد أن يتقدم إلى أي بيت ويشاركه في الطعام الذي كان دائما معدا. كان الفقراء والأغنياء وجميع المسلمين الذين لهم بيوت خاصة يكرمون، وعادة ما يأتون إليهم قدر طاقتهم دون الالتفات إلى حالتهم أو دينهم.أما اليوم الثاني والثالث من أيام العيد فليس إلا استمرارا للأعياد العامة التي تقام في اليوم الأول ".[٢]

[١] – وليام شالر ، المصدر السابق ، ص ٦٧.

[٢] – جيرار دي نرفال، ج٣، المصدر السابق ، ص٢٢٣.

٤-المولد النبوي الشريف:

يعتبر المولد النبوي الشريف من المناسبات الدينية المقدسة عند العرب، حيث يحظى المولد النبوي الشريف باهتمام كبير، وغالبا ما تتصدره عادات وتقاليد تفضلها العديد من العائلات على مائدة عشاء خاص بهذه المناسبة، التي تقام في الثاني عشر من شهر ربيع الأول كل عام، حيث يتم استقبال هذا اليوم بإضاءة الشموع، وبإلقاء الخطب والدروس والمواعظ في مختلف المساجد، مع قراءات وتلاوات القرآن الكريم ثم الابتهالات والأدعية الدينية بصورة جماعية.وعن العادات التي تقام في هذا اليوم عند العرب.نورد ما ذكره هاينريش فون مالتسان، واصفا إحدى احتفالات المولد التي كان يقيمها ملوك بني زيان في مدينة تلمسان، نقلا عن المؤرخ محمد التنيسي " وكان[أبو موسى الثاني]يقوم بحق ليلة مولده صلى الله عليه وسلم، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم.يقيم مدعاة يحضر لها الأشراف والسوقة فيما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيَ مبثوثه، وشمع كالأسطونات.وأعيان الحضر على مراتبهم تطوف عيهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبيدهم مباخير ومرشات.والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي أخر الليل بموائد كالهلال قد ورا والرياض نورًا، قد اشتملت عن أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين، وتلذ بسماع أسميها الأذان إلى غاية صلاة الصبح ".[١]

وبما أن عيد الفطر والأضحى أعياد ترسم الفرح والبهجة على وجود الأطفال، وكذلك "المولد النبوي عيد كبير للأطفال، فالمدارس كلها مزينة بالأعلام والأزهار ويقف التلاميذ أمامها، وبأيديهم مسدسات يسددونها نحو كل مار فيدفع لهم النقود هدية، وإذا كان المار يهوديا، أو يهودية فعليه أن ينزع حذاء هو يغني، ويعترض الأطفال المارة ويرشون وجوههم

[١] – هاينريش فون مالتسان، ج٢، المصدر السابق، ص ص٥٤، ٥٥.

بالماء المعطر، وينتظرون منهم أيضا أن يقدموا لهم هدية، وتوجد بقسنطينة مدارس كثيرة فمن المستحيل أن يمر المرء في هذا اليوم بشارع من الشوارع دون أن يتوقف".[١]

وهكذا هي أجواء الاحتفال بالمناسبات الدينية عند العرب سواء أكان عيد الفطر، أوعيد الأضحى أو المولد النبوي الشريف فكلها تخلق جوا من البهجة والسرور التي لها سحرها الخاص.وهذا ما عبرت عنه الرحالة إميليا إدواردز"بقولها وقد حدث فيما بعد أن صادفنا أعياد إسلامية عديدة سواء في مصر أو سوريا.فوجدنا المراجيح تعمل طوال النهار والألقاب النارية كل مساء".[٢]

ثالثا- عادات وتقاليد اللباس:

١- مكانة الرجل العربي ولباسه:

أ-مكانة الرجل العربي :

يمثل الرجل الفئة الأهم في المجتمع العربي إذ يعتبر نفسه شخصية مميزة أحسن من المرأة بكثير، والقانون في المجتمع جعل كل شيء خاضعا له ومسيرا حسب رغبته "في غالب الأحيان خاصة وإن هذا القانون يسنه هو، ويخضع الفئات الأخرى له"[٣].

وكما أنه من عادات العرب أن تكون كلمة الرجل أعلى من كلمة المرأة على الدوام.وإلى جانب هذا فإنه يمتاز بقوة العزيمة والشجاعة، وهي الصفة التي تتفقجل المصادر عليها فلم يتحدث أي مصدر صادفناه عن الجبن، بل عكس ذلك يمتدح على الشجاعة واندفاعه دونما أي تردد، ولو كان ذلك مغامرة.

ويشير هاينريش فون مالتسان إلى شجاعة الرجل القبائلي في منطقة زواوة حينما رأى بعض الرجال، بعد إخضاعهم من طرف الفرنسيين؛أنهم يبقون بكامل قوتهم مع تقدمهم في

---

[١] – فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص٨٦.

[٢] – إميليا إدواردز، المصدر السابق، ص٤٩.

[٣]–هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق، ص١٥١.

السن إلى حدود الخمسين، وأن ملامحهم تدل على قوتهم وغضبهم الداخلي العميق فقد قال في هذا الصدد:"كانت عيناه سوداوين ملتمعتين تطل منهما الكراهية والسخرية، وله أنف منحن يدل على الطموح إلى التحكم...وكانت ملامح وجهه تحمل تعبيرا متحديا وقامته تشبه قامة بطل قديم، تضارع مشية طاغية سقط، لكنه يفقد كبرياءه "[1].

وبالإضافة إلى كل هذا فإن الرجل العربي في العموم مثقف، وخاصة الجزائري.وهذا ما اكتشفه الرحالة فيلهلم شيمبر أثناء إقامته في الجزائر، حين بحث قصدا عن عربي يجهل القراءة والكتابة حيث قال:" لقد بحثت قصدا عن عربي يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة من بين أفراد الشعب "[2].

وتبقى هذه السمات متأصلة في شخصية الرجل العربي، وتعتبر بالنسبة له مقومات الرجولة.

ب- لباس الرجل العربي:

يعتبر اللباس من الحاجيات الأساسية لحياة الإنسان فهو يعكس مظهرا واضحا لمدى تحظر منطقة ما، ومرآة تبرز ثقافة تلك المنطقة وجزء من حياتنا اليومية، ومن الطبيعي أن يعتز كل عربي بلباسه لأنه يمثل عمق تاريخي وتراثي، بالأصالة والعادات والتقاليد فهذا الزي أو ذاك جزء لا يتجزء من الشخصية.

أما الملابس والأزياء الرجالية تختلف بقدر كبير، وذلك أن لكل منطقة أصالتها وملابسها التي تميزها عن غيرها من المناطق.وإن كانت تتشابه فيما بينها في بعض الأحيان، وهذا ما شاهدته إميليا إدواردز في سوريا ومصر وعند العرب البدو وحيث قالت " وتجد هنا التراجمة السوريين في سراويلهم الفضفاضة، وصدرياتهم، المزينة بالقصب،

---

[1]- هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق، ص١٤٩.

[2]- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ،(١٨٣٠-١٨٥٥)،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٨٨٩،ص١٣

والفلاحين المصريين حفاه الأقدام مرتدين جلابيب رثة زرقاء وطواقي من اللباد، والبدو ذوي البشرة السمراء في عباءاتهم الفضفاضة ونعالهم ذات الشرائط البنية اللون والشيلان التي من نفس القماش حول الجبهة مع شريط من وبر الجمل المجدول ".[1]

وفي حديث آخر عن موضوع اللباس، صور بيرتون لباس أحد مشايخ العرب فقال الذي يتغير في المدن والمناطق الأكثر تحضرا"فرأس الشيخ العربي ذو الشعر الطويل أو الحليفة قد علتها طاقية بيضاء من القطن، يعلوها (أي الطاقية) كوفية من الحرير وقطن مختلطين، لونهما –عموما –أحمر باهت، وحوافها صفراء خفيفة، محاطة

بفتائل حريرية مجدولة تتدلى منها شراريب(جمع شرابه)تصل إلى خصر المقاتل.ويثبت الكوفية لتظل على العينين، تعطي بهيئتها منظرا مرعبا للابسها، أما لباس الجسم فهو ببساطة قميص قطني بأكمام محكمة، مفتوح من الأمام، ومزين حول الخصر والرقبة وأسفل الصدر، بتطريز المشبك، ويغطي هذا الثوب البدن كله من الرقبة إلى القدمين ويلبس بعض العرب سراويل واسعة إلاَ أن البدو يعتبرون ذلك نوعا من التخنث، بل أنهم لا يلبسون حتى العباءات كما لا يلبسون الجوارب.وفق القميص الآنف الذكر يلبس الشيخ العربي عباءة من شعر الجمل، قصيرة أكمامها.والعباءات على أنواع مختلفة، فمنها ما هو من حرير خالص، ومنها ما هو من صوف خشن، وبعض الناس يفضلها بنية اللون، وطائفة أخرى تفضلها مخططة".[2]

ومن الحديث عن لباس البدو ينتقل الرّحالة إلى الحديث عن اللباس في الحجاز.فيرى أنهم يفضلون العباءات بيضاء مطرزة بالذهب وبخيوط مختلفة الألوان أو صفراء على شكل مثلثين كبيرين تعلوهما أشرطة عريضة وأشكال أخرى تحت وعلى جانبي الظهر.ويحدد الكتفين (فوق الكتفين)والصدر بنسيج بديع من خليط من الحرير وقطن ويربط من الأمام بخيوط قابلة للمط (أستك أومغيط) وشرا ريب من الحرير والذهب.ويلتف الحزام حول القميص

[1] – إميليا إدواردز، المصدر السابق، ص٢٧.

[2] –ريتشارد.فبيرتون، المصدر السابق، ص١٩٢.

عند منطقة الخصر حيث توضع الجنبية (الخنجر المعقوف)وأخيرا يأتي الخف (الصندل)لتتم ملامح الزي العربي".[1]

والرجل الجزائري عكس الرجل الحجازي إذ " لا يجوز على الإطلاق أن يرتدي الثياب والأوشحة المطرزة بالذهب والفضة غير النساء، وإذ تجرأ رجل على ذلك فسوف ينظر له على أنه مخنث ".[2]

فلباس الرجل الجزائري يتمثل غالبا في قماش مصنوع من الصوف وهو ذو شكل بسيط جدا، وقد اختلفت تسمياته فسمي "القندورة"[3]، والحايك والشلوحة.وكان الأغنياء منهم يستطيعون امتلاك نوع آخر من اللباس والذي يضعونه على الحايك ويسمونه "البرنوس وهو مصنوع من المعطف له شكل دائري يلصق في وسطه "قلمون" يمكن للرجل أن يتركه بدون استعمال أو يغطي به العمامة، وهو وسيلة للوقاية من المطر، وهو يصنع قطعة واحدة بدون تخييط ، وهو في هذا الشكل يتسم بالبساطة والأناقة معا".[4]

ويمثل البرنس لدى الجزائريين قيمة رمزية كبيرة فهو يرمز لأصالتهم وشرفهم، لذلك فهم يحتفظون به لسنين طوال فحتى وإن رثَ ولم يعد صالحا، فإنهم يرقعونه رقعة بعد الأخرى، ولا يتخلصون منه في هذه الحالة لعدم صلاحيته إنَما يأخذونه إلى سوق من الأسواق لبيعه هناك لأحد المرابطين الزاهدين ، وربما يرجع ذلك إلى قداسته وإمَا لفقرهم.

وهذا ما رصده هاينريش فون مالتسان أثناء رحلته إلى منطقة زواوة بقوله:"... وقبل أن نذهب إلى الفراش لفت انتباهي عمل غريب كان يقوم به أحد النازلين معنا في بيت الضيافة فقد خلع برنسه وظهر قميص لا حد لوساخته، كنت أعلم أنَ الزواوي لا يغسل قميصة أبدا، إمَا أن يتحمل كائن بشري فوق جلده مثل هذا القميص فقد كان ذلك بالنسبة لي

---

[1] – ريتشارد.فبيرتون، المصدر السابق،ص١٩٣

[2] – هاينريش فون مالتسان ، ج١، المصدر السابق ص٦٣.

[3] – فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص٩٥.

[4] – وليم شالر ، المصدر السابق ، ص٨٣.

لغزا نفيسا، كانت الألوان كلها ممثلة في هذا القميص، وليست ألوان قوس قزح كلا كانت ألوانا من خليط آخر بمثابة الماء وأشعة الشمس، كان القسم الأسفل أصفر والأوسط بنيا والأعلى أسود...فلما يا ترى خلع هذا برنسه ؟ ألمجرد أن يرينا ألوان قميصه؟ كلا لقد خلعه ليرقعه فلم يسبق لي أن رأيت قطعة ثياب تحتوي على قماش قليل مثل هذا البرنس. حقا لقد كان ذات مرة من الصوف، ولكنه الآن عبارة عن خيوط شفافة متشابكة تتخللها، هي كل ما كان يرى البرنس، وقد منحته الوساخة كثافة معينة طبعا، وكان الرجل الشيخ يرقع ويرقع، وعندما انتهى من ذلك أصبح مظهر البرنس أكثر من ذي قبل".[١]

وأضاف شيئا ذا أهمية حين قال :"... ولكن أخشى أن أكون غير مهذب إن أنا وصفت القميص الزواوي على حقيقته".[٢]مما يعني أن هذا اللباس كان يرثى له، ورغم سماعه إلا أن دهشته كانت كبيرة حين رآه في الواقع مما يثبت أن الزواوي لا يكترث للنظافة إطلاقا، ولا يتعلق الأمر بالرجال من العامة فقط بل المرابطون منهم أيضا على نفس الهيئة، ففي بعض القرى ، يكون صاحب الثياب المتهرئة هو الأكثر امتلاكا للأموال حتى أنه بمنظره ذاك يمكن أن يكون شيخ قبيلة."حيث يقوم هؤلاء المرابطون بشراء تلك البرانيس المتهرئة التي تباع في الأسواق بعد نهاية صلاحيتها تماما"[٣].والسبب في ذلك راجع كما أشار وليام شالر" أنهم ليسوا في فترة تسمح لهم بالاهتمام بالمظاهر، هذا من جهة ومن جهة أخرى يمثل عمل سكان زواوة خدمة الأرض في غالبهم، وخدمتها تحتاج إلى تواضع كبير وليس إلى الترفع والاهتمام بالمظاهر".[٤]

وبالإضافة لذلك هناك ظاهرة توارث هذا البرنس"فالأولاد، وأولاد الأولاد يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهم ما يناهز مائة سنة " [٥]. ويمثل البرنس عناية الأب وحمايته لأولاده

---

[١]–هاينريش فون مالتسان، ج٢، المصدر السابق ، ص ص١٣٤، ١٣٥.

[٢]– المصدر نفسه، ص١٣٥.

[٣] –فندلين شلوصر ، المصدر السابق، ص ص٩٩، ١٠٠.

[٤]– وليام شالر ، المصدر السابق، ص ١٦٦.

[٥]– فندلين شلوصر ،المصدر السابق ،ص٩٩.

خصوصا الإناث منهم، فالابنة عندما تتزوج يخرجها والدها ببرنسه أو أخوها ببرنس والده حتى ترافقها عنايته.

٢-مكانة المرأة العربية ولباسها:

أ-مكانة المرأة العربية:

إن الحديث عن المرأة العربية من أهم ما ينبغي أن تصرف الاهتمامات إليه،ومن أعظم ما ينبغي التركيز عليه،فالمرأة تمثل العمود الفقري للبيت،حتى أن كثير من سكان البلاد،العربية يرون أن النساء زينة المنزل لا يمكن الاستغناء عنهن فالبيت بدون امرأة بيت مهجور لا دعامة له.

والمرأة العربية تمتاز بالنشاط وإلى جانب القيام بأمور البيت،نراها في الحقول تقتسم مع زوجها صعوبة العمل لجعله أقل مشقة،حيث "كانت هناك مئات من الفتيات السمر ،يطفن بالحقول الجميلة وبأيديهن مناجل بشكل الهلال،والمنجل في الوقت نفسه رمز لعقيدتهن فينحنين جانب المقاطع،فيجمعن بحركة مناسبة السنابل المثقلة بالحبوب في حياكهن البيضاء".[١]وهذا المنظر لفت انتباه الرحالة هاينريش فون مالتسان،فوصفه بأنه أغنية شرقية رائعة لا يمكن أن تكون إلاً في وقت الحصاد.

لكن رغم صعوبة الحياة ومشاقها فإن النساء كنّ يضفين على حياتهن بعض الفرح والتسلية فقد كنّ يحفظن أغاني معينة يرددنها أثناء عملهن في إدارة الطاحونة لطحن الزيتون النسج وعند خدمة الفخار وجني الزيتون.فقد ذكر فندلين شلوصر أن" النساء وبالذات الفتيات العازبات منهن يقمن بجني الزيتون وسط أريج من الأغاني والموسيقى يختتم بالرقص عند نهاية هذه العملية التي تمثل أعيادا بالنسبة له".[٢]

[١]- هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق ،ص ص٤٣، ٤٤.

[٢] -فندلينشلوصر ،المصدر السابق ،ص٩٦.

هذا وقد عرفت الجزائريات كما وصفهن هاينريش فون مالتسان بأنهن " أيامى رجالهن وخادماتهن ودوابهن.فليس من النادر أن يرى الإنسان أمام أبواب الجزائر عددا كبيرا من العرب المتسخي الثياب الكسالى يسيرون في يسر وخلو بال ونساؤهم خلفهم يلهثن تحت أحمالهن الثقيلة وكل بدوي تقريبا يتزوج عدة نساء لأنهن،عوض أن يكلفنه ثمنا،يصبحن على عكس ذلك مكسبًا له،فهن فئات عملات يشغلهن في حقوله،دون أن يقدم لهن أجرًا،أما الحضري فأنه يكاد يقتصر دائما على امرأة واحدة ".[1]

والمرأة العربية مثال للوفاء والإخلاص لزوجها وهي متنفسه بعد مشاق العمل،كما أنها منبع السعادة التي تسود الأسرة،يقول فيلهلم شيمبر وهو يصف عائلة جزائرية " وقد أتيح لي أن أراقب أسرة كانت تسكن بجواري،فحين يعود الرجل إلى البيت تستقبله الزوجة معانقة إياه مقبلة،وتجلسه قربها فوق الأريكة وتحدثه ويحدثها.ويسرع الأطفال كذلك إلى أبيهم فرحين،فيضمهم إلى صدره في حنان وحب ويأخذ في مداعبتهم ".[2]

وفي موضوع آخر يقول :"إن المرأة تعيش كالسجينة تقريبا،وليس مرد ذلك إلى غيرة زوجها،وإنما مرده إلى العادة المتبعة،فالرجل الجزائري ليس غيورًا جدا،بل هو في غيرته لا يختلف عن أي إنسان ينتمي إلى شعب آخر وإن هو وجد رجلا في بينه،فإن تصرفه في هذه الحالة لن يختلف عن تصرف رجل ألماني مثلا!".[3]

وطبعا ما ذهب إليه فيلهلم شيمبر ينم عن وجهة نظر خاطئة فالرجل العربي أشد غيرة من غيره على المرأة،وهو يمنحها الحرية في القيام بأعمالها، ولا يتركها سجينة كما يرى شيمبر،فكثيرا ما تقع الحروب بسببهن، نظرا لغيرت الرجل العربي الشديدة.

ومن الأمثلة الدالة على شدة غيرة الرجل العربي على نسائه نورد ما ذكره الرحالة الغربي ج.أو.هابنسترايت "أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند في أساسها إلى قوانين،

---

[1]– هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق،ص ٧٧.

[2] –أبو العيد دودو،المرجع السابق،ص١٣.

[3]–المرجع نفسه،ص ١٤.

وليس فيها ما يفاجئ الأوربي كغياب النساء عن الحياة العامة،واحتشامهن الشديد،فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب،وحتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لا تصل إليها، وعندما يسافرون على ظهور البغال يكنَ مختبئات في ستائر غريبة،وقد ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته،وعندما طلبت منه أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن تموت على أن يراها أحد".[1]كما أضاف أن الجزائريين من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الغيورين.

فالنساء العربيات عامة والجزائريات خاصة كما ذكر وليام شالر لهنَ "ميزة جمال القامة واعتدالها،وبعد ذلك يأتي جمال العنينين،والحواجب الكبيرة والأسنان الجميلة،وأشار إلى أن المرأة هناك تصل إلى النضوج في وقت مبكر، لكن يقابل هذه السرعة في الذبول".[2]

فقد ذكر مالتسان أنه حين وصل إلى بجاية، رأى "النساء هناك سافرات ، لكنهن لم يستطعن الحفاظ على جمالهن بسبب برودة الطقس في الشتاء، وحرارة الشمس في الصيف التي يتعرض لها دائما،فيجعل هذا المناخ من ابنة العشرين بالإضافة إلى الأعمال الشاقة التي تقوم بها،تظهر بمظهر امرأة في الخميس بالنضر إلى غضون وجهها".[3]

أمَا عن بنات الصحراء وبنات التل يقول"وجميع بنات الصحراء اللواتي رأيتهن رشيقات القوام،في حين أن بنات التل سمينات في أغلب الأحيان".[4]وكثيرا ما يعتبر الجزائريون هذه السمنة أهم شروط الجمال عند النساء.

والمرأة الجزائرية تعتني عناية خاصة بشعرها،وكثيرًا ما ينزل شعر امرأة جميلة حتى يصل إلى الأرض.والمرأة الجزائرية لا تقنع بالجمال الذي وهبتها الطبيعة لشعرها ولحواجبها

---

[1]–ج.أو.هابنسترايت،المصدر السابق،ص٤٧.

[2]–وليام شالر،المصدر السابق،ص٧٩.

[3]– هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق،ص ص١٤٩، ١٥٠.

[4]– هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق،ص ١١٦.

فهي تعمل على صبغها بالأسود،كما تصبغ بطلاء خاص أظافر أصابعها يديها وكذلك تصبغ بالحناء كفيها وقدميها.[1]

ب-لباس المرأة العربية:

ولباس المرأة العربية لا يمثل مظهرا لأناقتها فقط،بل يعتبر اللباس الأكثر جمالا دليلا على براعة صاحبته،وإتقانها لعملها،طالما أن الألبسة من صنع يديها ويتمثل لباس المرأة الجزائرية في قطعة من الصوف المحاك أو القطن،يعرف في الغالب بـ"الحايك".[2] وهو شائع الاستعمال لدى النساء،عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلفها بطريقة خاصة جدا تستر بها جسمها،و الحايك "يتراوح طوله بين ٦و٧أذرع، وتتخلله عادة خطوط بيضاء أو حمراء يلقى فوق اليدين والكتفين ويلف حول الجسد،ويمسك بإبرة فضية ".[3]

ويشتهر هذا اللباس عند النساء الجزائريات في كل ربوع الجزائر كما يعتبر من الأغطية المهمة جدا عندهنَ،فهي تحافظ على الحياء بين المجتمعات،حتى لا يضطر أي شخص للحديث عن امرأة ما،بالإضافة إلى كل هذا فإنه يضفي عليها منظرا رائعا.وكثيرا ما افتتن الرَحالة الغربيين بصورة المرأة الجزائرية وهي ترتدي الحائك،وخاصة هاينريش فون مالتسان إعجابه بمنظر الحائك الذي ترتديه الأغواطية جعله يصفه بالروعة،ويقارنه بملابس المرأة الأوربية والتي وصفها بالعري والتعاسة،وفي الصدد يقول " وكنّ كلهنّ يرتدينّ الحائك والمنديل،وكان الحائك يخلع عليهنّ منظرًا رائعًا.حقا لقد كانت ثيابهنّ على العموم رثة،ولكن الرثاثة لا تبدو في مثل هذه الثياب الفضفاضة كريهة عكس ما عليه الأمرُ في الثياب الأوربية الضيقة.ذلك أن العربي،أو العربية،المهلهل الثياب يبدو دائما ذا منظر مقبول،بحيث لا يرى المرء أبدا مرفقه عاريا على خلاف ما يراه في الثياب الأوربية التعسة " [4].

---

[1]- وليام شالر،المصدر السابق،ص٨٥.

[2]-هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق، ص ٢٣١.

[3]-فندلين شلوصر،المصدر السابق ،ص٩٢.

[4]-هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق ،ص٢٣١.

أما الحضريات من النساء الجزائريات كما رآهنّ جون ب وولف لا يختلفنّ في اللباس عن البدويات إلاَ "أنهنّ كنّ يصبغن شعورهنّ بالحناء ويكحلنّ عيونهنّ ويضعنّ المساحيق على خدودهنّ،والنساء المحرمات منهنّ يتحجبنّ في الشوارع،كما أنهنّ يلبسنّ فساتين فخمة،على غرار الفقيرات،اللائي يلبسنّ أسمالا بالية على قدر الاستطاعة "[١].

والشيء نفسه رآه هاينريش فون مالتسان عند حضريات الجزائر حيث " تخضع وجوه الحضريات لعدد من عمليات التجميل،قد تثير الاشمئزاز في أوربا،ولكنها تعتبر عملا لائقا،بل متميزًا،فالحواجب تكحل بعصير (العفصة)قدر الإمكان.فتصير أقواسا، تلتمع تحتها نار العيون التي تشبه لهيب الحب!أما الأهداب فتصبغ بالكحل من الجهة الداخلية،فيبدو فوق العين وتحتها خطان أسودان رقيقان،يزيدان من شعاع بياضها "[٢]. وإلى جانب كل هذا ولزيادة جمالهنّ كنّ أحيانا" يزينّ رؤوسهنّ بظفيرتين، مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء،تتدليان من الجانبين،ويثبتنّ بها حلقتين فضيتين مرصعتين بالجوهر ومعلقتين فوق الأذنين ويمتزنّ عن العربيات بجمال الوجه "[٣].

وهناك فئة من النساء اللواتي لا يمكن الحكم عليهنّ من الوهلة الأولى،فيما يخص ملامح وجوهنّ وجمالهنّ،ذلك أنهنّ لا يخرجنّ سافرات الوجوه،بل يغطينّ وجوههنّ بالبرقع المكون من قطعة قماش توضع فوق الأنف والوجه، ويؤكد لنا هاينريش فون مالتسان على الإغلاق المحكم لثياب النساء الجزائريات وإصرارهن على إخفاء زينتهن خلف ما يسمى بالعجار" أمّا مايتعلق بالحضريات،فإن الإنسان لايرى في الشارع إلا القليل من هؤلاء الجميلات المتحجبات؛اللواتي يختفينّ من الرأس إلى القدم خلف عباءات قطنية،لها شبه بالأزر أو الأكفان.وتنشر الجميلة فوق محياها لتطمس وجهها أمام نظرات الفضوليين ،

[١]–جون .ب.وولف، الجزائر وأوربا (١٥٠٠، ١٨٣٠)،تر: أبو القاسم سعد الله ،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،١٩٨٦،ص ص١٦٩، ١٧٠.

[٢]– هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق ،ص ص٦١، ٦٢.

[٣]– فندلين شلوصر ،المصدر السابق ،ص ١٠٠.

رقعتين . فما يسمى بـ"العجار " يغطي الوجه من الذقن إلى ما تحت العينين،وذلك يغطي الأنف،أما ما يسمى "بالفوطة تع السنانغ" يقسمان الوجه إلى نصفين غير متساويين ولا يتركان سوى خط ضيق مكشوف، تشبع من خلاله العيون العربية السوداء،وكثيرًا،ما يخدع الغريب في تقدير أعمار هؤلاء الجميلات المحتجبات،وكثيرًا ما يسخر الحضر من الفرنسيين الذين يتبعون عجوزًا،ضانين أنهم يسلكن طريق حورية!" [١].

وقد احتلت المرأة مكانة هامة عند جيراد دي نرفال في رحلته إلى الشرق،حيث أثار الزي النسائي الشرقي،الذي يمتاز بالسحر الغامض،والذي يغطي مفاتنهن،شعوره بالكآبة والتضايق الذي انتابه بسبب ما يرى من الصور الأكثر انتشارًا وهيمنة على أزقة وشوارع البلاد الشرقية ففي "بعض الأحيان،تخلق ثنايا الحجاب ذات المربعات البيضاء الممزوجة بزرقة،والتي تغطي الرأس والكتفين نوع من القلق والضيق،وممّا لا شك فيه أنه يغدو من المستحيل فيه رؤية وجه امرأة من مواليد هذا البلد(القسنطنطنية) لو لم تقم فيه بعض الملاهي أو النوادي" [٢].

وعموما فلباس العربيات محتشم وكما كانت هناك فئة التزمت بالحايك والعجار والعباءة،فهناك فئة أخرى من النساء الجزائريات كما لاحظهنّ وليام شالر يرتدينّ ملابس "تتكون من قميص صغير يصنع عند نساء الطبقة الغنية من أرفع المواد وأفخرها،ومن سراويل ينزل حتى العقب،وثوب من الحرير أو من مادة أخرى ويكون غنيا بالتطريز بالدنتال ويغلق بشريط من الوراء،وأخيرًا تلبس المرأة الجزائرية حذاءا ولكن دون جوارب"[٣].

ومهما تباينت طبقات النساء،إلا أنه ثمة نقطة التقاء بينهن،فكلهنّ يمتلكنّ الذوق الفطري في التأنق والتزين بالحلي والتضخم بالحناء ووضع الكحل،فكثيرًا من السيدات العربيات يلبسنّ من الحلي ما يفوق ثروة أزواجهنّ،حيث يتكلفنّ في لبس الأنواع المختلفة من الحلي

[١]– هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق ،ص ٦١.

[٢]– جيرار دي نرفال،المصدر السابق ،ص٣٣.

[٣]– وليام شالر، المصدر السابق،ص ٨٥.

والجواهر،وهذا ما تسنى لينكوس كازانتزاكيس رؤيته وهو في إحدى القرى المصرية حيث وجد"النساء يتبادلن الحديث في الخارج،وقد طلينّ أيديهنّ بالحناء،وعيونهنّ بالكحل،ووضعنّ على الخدين شامتين صناعتين،ولبسنّ أساور من فضة حول معاصمهنّ،وخلاخل من فضة حول كواحلهنّ " [١].

أما بالنسبة للمرأة الجزائرية كما تحدث عنها وليام شالر فهي لا تختلف عن أي امرأة عربية،فهي الأخرى" تلبس الحلي الثقيلة،بما في ذلك خواتم وأقراط الذهب وأساور وخلاخل الذهب ثم تنزل النساء حسب طبقتهن إلى الفضة،بل والنحاس أحيانا.ولباس الرأس القومي هو"السرمة"الذي يصنع من الذهب أو الفضة حسب الطبقة التي تنتمي إليها المرأة،وهو مخروطي الشكل.و فوقه يلقي حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريزة"[٢].

وقد أشار وليم شالر إلى أن لباس الزينة السابق يتعلق بالمرأة المتزوجة"فترتدي على رأسها،بدلا من ذلك،قلنسوة عادية مطرزة بسكوينات. أما الفتاة غير متزوجة تعرف حالتها عندما تخرج من بيتها بسراويلها المتعددة الألوان،وهو لباس يبدوا أن أصله يرجع إلى أقدم عصور التاريخ"[٣].

وكما يمثل الحلي مصدرا لزينة المرأة العربية،ويمثل جزءا من العادات والتقاليد التي بقيت راسخة ومتوارثة عند العرب،فإنه يملك قداسة أكبر عنده من كونها مجرد وسيلة للربح "فحلي المسلمة مقدسا وقلما يباع حتى عند الضرورة القصوى "[٤].

ولقداسته نرى أن النساء في منطقة أولاد نايل،يحتفظنّ بالحلي المتوارث عندهنّ،ولا يبعنّه حتى بأغلى الأثمان.وهذا ما أكده هاينريش فون مالتسان بقوله:" فالنايلية تحتفظ بالجواهر التي تحملها،وكثيرا ما تكون هذه الجواهر ثمينة،وأنت ترى أن كثيرا من هؤلاء

---

[١]– نيكوس كازانتزاكيس، تر: محمد الظاهر ،منية سمارة، شركة الأمل للطباعة والنشر،مصر ،١٩٩١، ص ١٠٢.

[٢]– وليام شالر، المصدر السابق، ص ٨٥.

[٣]– المصدر نفسه، ص ص٨٥، ٨٦.

[٤]– هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق،ص ١١٨.

الفتيات لهن سلاسل فضية ثقيلة،وقد لفت حول أعناقهن ثلاث أو أربع مرات ،وهناك عدد كبير من القطع الذهبية الملتحمة بها،وقطع المرجان الملصقة برؤوسهن والأساور الفضية السميكة والخلاخيل المصنوعة هي الأخرى من معدن كريم" [1].

وقد حاول هاينريش فونمالتسان جاهدا لإقناع إحداهن بيع قطعة واحدة من الحلي الذي تتزين به ولكن دون جدوى "لاحظت أن بعض القطع التي تتزين بها النايليات تعد حقيقة قطعا ذهبية عربية نادرة جدا،إلاَ أنه لم يكن في إمكاني أن أقنع فتاة واحدة منهنّ بيع قطعة واحدة لا غير".[2]فالحلي عندهنّ يمثل جزءا من عاداتهم وتقاليدهم.

وعن وسائل التسلية وأماكن الترفيه عن النفس،التي تقصدها النساء العربيات كلها لا تخرج عن نطاق أماكن المناسبات والاحتفالات العائلية، وهذا ما لاحظه أكثر من رحالة وممَا لاشك فيه"فإن وسيلة التسلية الوحيدة التي في متناولهن،هي تلك اللقاءات التي تقع في الحمام العموميأو الزيارات المتبادلة والاجتماعات،ولا سيما مناسبات الزواج والميلاد والختان...الخ"[3].

رابعا-المأكولات العربية:

أمَا بالنسبة لعادات الغذاء في المناطق العربية، فيمكن القول أنها تختلف من منطقة إلى أخرى،من كسكس وأنواعه،وخبز وحلويات وفواكه وغيرها من المأكولات الأخرى،إمّا على حسب القدرة أو المناسبات.

١-الكسكس:

يمثل طبقا مقدسا بين الجزائريين ككل،ويقدم في الحياة اليومية العادية وفي المناسبات ويمكن الاختلاف في لواحق هذا الطبق فقط،فلكل مناسبة ومقام طريقة تحضير خاصة به وتحضيره يستغرق مدة غير قصيرة،وعملا متواصلا،حتى يتم الحصول على وجبة لذيذة وفق الشروط ولتحضيره،يستلزم على المرأة أن"تذر الدقيق في قصعة خشبية عرضها قدمان،وترش

[1]- هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق،، ص ١١٨.

[2]- المصدر نفسه، ص ١١٩.

[3]- وليام شالر، المصدر السابق،ص٨٨.

فوقه قليلا من الماء ثم تفتله بيدها،وتضيف إليه الدقيق والماء ثم تفله بيدها وتضيف إليه الدقيق والماء عدة مرات.وهكذا تنشأ عن الفتل الطويل حبيبات تشبه الدخن وبد ذلك تملأ قدرا عادية بالماء وتضعها فوق النار،وبمجرد أن يغلي الماء تأخذ إناء آخر في أسفله ثقوب عديدة.وتضعه فوقه بحيث يلائمه تماما وتضع الكسكسي في الإناء الأعلى،وتغطيه بغطاء أو بقطعة قماش،وبعد نصف ساعة ينضج بواسطة البخار الذي يتخلله،وترفع الإناء وتضع الطعام في إناء خشبي وتفرزه بيدها،ثم تضع فيه العسل أو الزبدة ،أو اللبن الخاثر أو الزيت ومرق اللحم "[١].وكثيرا ما كان هذا الطبق محط إعجاب الفرنسيين الذواقين .

وقد يقدم طبق الكسكس "بالبيض المسلوق أو بأعشاب حلوة ...إلخ ،والكسكس لذيذ الطعم ومغذ جدا، والطبقة الفقيرة التي تستطيع شراء اللحم، تحضره بزيت الزيتون أو مدهونا بالزبدة.وأما طبقة العمال،فهي تقتنع بالخبز وزيت متى أمكنها الحصول عليه"[٢].ويمكن اعتبار الكسكسي "الصحن القومي،وهو بمثابة المقارونة في ايطاليا والأرز في الهند" [٣]

وأما بالنسبة لأكل اللحم عند الجزائريين، وكما أشار فندلين شلوصر فإنهم "لا يستهلكون إلا قليلا من لحم البقر،وهم قلما يذبحون بقرة،ولا يذبحون عجلا أبدًا"[٤].

ولا يتم "أكل اللحم إلا إذا مات حيوان ميتة طبيعية أو في مأدبة كبيرة"[٥].في حين أنه يعد "لحم الخنزير،لحم أقذر حيوان وهو مثار اشمئزاز المسلمين وهو محرم عندهم "[٦].

وبالإضافة إلى طبق الكسكس يعد العرب طعاما آخر،كثيرًا ما استلذه الرحالة ونال إعجابهم،وقد اشتهر به سكان قسنطينة وهو"يصنع من نبات القرنينة ،ولهذا النبات،ساق يبلغ ارتفاعه قدما ونصفا،وزهرة كثيفة وشوك طويل.وتقدم غذاء للجمال خاصة ولأزهاره نويات

---

[١]–فندلين شلوصر،المصدر السابق ،ص٩٢.

[٢] – وليام شالر،المصدر السابق،ص٨٨

[٣]–المصدر نفسه، ص٨٧.

[٤]– فندلين شلوصر،المصدر السابق،ص٨٨.

[٥]– هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق،ص ١٣٢.

[٦]– هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق،ص ٢٠٣.

لحمية تقطع وتطبخ وتهيأ بالزبدة ولا يعرف سكان هذه المنطقة نوعا من الخضر غير البصل،إلا أنه يعرف كيف يجعل أطعمته العادية لذيذة المذاق عن طريق طبخ أعشاب مختلفة"[1].

٢- الخبز (الكسرة):

الخبز أو الكسرة من أشهر المؤكولات التي تعتمد عليها المنطق الجزائرية، كغذاء رئيسي بالدرجة الأولى مثله مثل الكسكس،وعن طريقة إعدادها فهي" تطبخ في الطاجين،والأغنياء يعدنها من دقيق القمح ويأكلونها مع الزبدة،أما الفقراء فيطبخون كسرة الشعير ويأكلونها بزيت الزيتون،ويشترون معه اللبن،ويأكلون التمر أو التين الجاف"[2].

٣- الحلويات :

بالنسبة للحلويات كان تحضيرها يعتمد على علي وسائل بسيطة ومكونات بسيطة،ويمكن تحضيرها في المناسبات المختلفة كالأعياد والمناسبات المختلفة.ورغم أنها لا تصل إلى درجة الجودة والتنوع إلا أنها كانت لذيذة.ومن بينها :

أ-البقلاوة: وهي حلوى محبوبة،وتركية الأصل،لها شكل الكعك الألماني،ومحشوة باللوز والزيت،دسمة جدا،زيتية ومشربة بالعسل أيضا.[3]

ب-القطايف: وهي تشبه الشعيرية ،ولكنها دقيقة جدا وعلى شكل دود من العجين المقطع،تحلى بالعسل والسكر إلى درجة أن من يأكلها تؤلمه أسنانه.[4]

ج-المهلبية: وهي عبارة عن حليب خفيف هلامي القوام ونشا ومسحوق أرز.[5]

وبالإضافة إلى هذه الأنواع هناك الزلابية،المشلوش...الخ.

---

[1]- فندلين شلوصر،المصدر السابق،ص٩٢.

[2]-المصدر نفسه،ص٩١.

[3]- هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق،ص٦١.

[4]-المصدر نفسه،ص٦١.

[5]- ريتشارد .ف.بيرتون، المصدر السابق،ص٧٥.

٤- المشروبات :

وأما عن المشروبات فهي مختلفة ومتنوعة،ولكل منطقة مشروباتها الخاصة بها ففي منطقة القبائل مثلا نجد أن الزيت أكثر شهرة وتناولا عندهم، فرغم صعوبة بلعه إلاّ أنهم متعودون ومتكيفون على ذلك،باعتباره دواء فعال ضد الكثير من الأمراض التي تصيبهم في حياتهم،فالزيت في منطقة القبائل كما لاحظ هاينريش فون مالتسان "ليس غذاءا ووسيلة للإنارة فقط،و إنما يستعمل أيضا دواءا داخليا وخارجيا،ولا دواء غير،وهو كثيرا ما يستعمل للمسد".[١]كما أنه "معينهم الوحيد للقيام بالأعمال الشاقة لفوائدها الكثيرة ،أما الأشربة التي يمكن أن تستخرج من الفواكه الكثيرة في المنطقة فهي في نظرهم تكلف ولا فائدة كبيرة منها سوى التعود على اختيار الطعام والترفع عن طعامهم السابق،والفواكه للأكل لكن غالبيتها للتجارة،لذلك فإما أن يشربوا الزيت بعد الأكل أو الماء. وقد هاينريش فون مالتسان أنهم لا يشربون الخمر إطلاقا لأنها محرمة عند المسلمين".[٢]

كما يعتمد العرب إلى جانب الزيت شرابا آخر لكنه ليس عام على الكل،وهو الحليب،فالذين يمتلكون الأبقار بكثرة هم الذين يستطعون شربه على أنواعه سواء الطازج أو المخثر كما يمكن صنع الزبدة من هذا الحليب " فبعد حلب الأبقار والأغنام،يشرع في مخض الحليب،وتتم تهيئة الزبدة على الصورة التالية:تعلق بعمود خشبي ذي عقب وثلاث سيقان،في علو الإنسان تقريبا قربة،تحتوي على اللبن،بواسطة حبال من أرجلها الأربع،وتجلس المرأة أمام العمود،وتمسك عنق القربة وتحركها هنا وهناك بدون انقطاع،وهكذا تنشأ الزبدة بعد مدة قصيرة".[٣]

وهناك نوع آخر من المشروبات عرف في منطقة الجزائر وهو:

---

[١]- هاينريش فون مالتسان،ج٢،المصدر السابق ،ص٤٤.

[٢]- المصدر نفسه، ص١٣٢.

[٣]- فندلين شلوصر،المصدر السابق ،ص٩٣.

السحلبجي:ويدعى" السحلب" وهو مشروب يغلى من الشعير التخمر قليلا،والحضر المعروفون به،ولا يشرب تقريبا إلا في الصباح،وذلك في ساعة مبكرة،ويقبل الناس على شربه في الشتاء بكثرة لأنهم ينسبون إليه خصائص مدفئة".[١]

القهوة:وهي مشروب الذي يحظى بمكانة خاصة في الوسط الشعبي،كانت مشروبا لا يتناوله إلا الأسياد وأصحاب السمو.وهي الأكثر شيئي يفضله العرب ولا يمكن الاستغناء عنه "فبإمكان العربي أن يصرف على القهوة من إيراده الضئيل،دون أن يصرف على أي مشروب آخر، فالقهوة هي في الحقيقة المتعة الوحيد التي يتلذذ به الفلاح المصري ".[٢]

والعربي بصفة عامة "والقهوة هي مشروب الترف للشعب الذي لا يتناول الخمر ولا يشرب سوى الماء القراح ".[٣] وبالإضافة إلى القهوة يشرب العرب كوب من الشاي محلى بنسبة كبيرة من السكر.[٤]

خامسا- عادات الضيافة عند العرب :

ومن العادات المتأصلة في المجتمع العربي حسن المعاشرة والاستقبال والضيافة،حيث يستقبلون الضيف بصدر رحب،ويميزونه عن باقي أفراد الأسرة.فسمة الكرم متجلية بوضوح من خلال ما وصفه العديد من الرحالة الغرب من مظاهر الحفاوة التي حضو بها وما لهذه المجتمعات من إكرام الضيف،فهم يكرمون الضيف بما لديهم على أنفسهم ولو كانوا في أمس الحاجة إليها.

وهذا ما لقيه الرحالة دوغالون من حسن استقبال وضيافة في سيدي عيسى وعين الحجل وبوسعادة والهامل، من طرف الأعيان وأهل المدينة،و تعبيرًا من هؤلاء عن مدى استقبالهم،يقوم الفرسان بتقديم مشاهد فروسية بالسلاح،على جياد مسرجة بالأحمر ويرتدون

---

[١]- هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق،ص٧٠.

[٢]-إميلياإدواردز، المصدر السابق ،ص٦٧.

[٣]-وليام شالر، المصدر السابق ،ص٨٨.

[٤]-ريتشارد.ف.بيرتون، المصدر السابق،ص١٩٩.

البرنوس، جامحين يصيحون ويطلقون البارود .حيث يقال الفارس ليس كل من يمتطي جوادا،بل إنه وهو يعدو يشحن سلاحه ويصوب ويضرب الهدف.وعن الجياد يقول الرحالة أنها من أجود الأنواع،منها السوداء المزرقة والرمادية وبعضها يميل لونها إلى الوردي،يمتطيها الرؤساء في السباق والتنزه ".[1]

إلى جانب الفروسية هناك الضيفة،التي يقدم فيها أفضل أنواع وأشهى الطعام،أشهرها المشوي والحميص وأكلة عبارة عن قطع من اللحم المطهي مع الكسكس وقد غرز في الكسكس حبات من الزبيب والمشمش والتمر وفي الأخير يقدم طبق من الدجاج. أما في السهرة فيتم تقديم طبق خاص عبارة عن خروف يوضع على نار متقدة في الهواء الطلق.[2]

وقد عبر هاينريش فون مالتسان عن حسن الضيافة والاستقبال التي لقيها بخيم سي الشريف بالجلفة " فقبل وصوله بمائة خطوة عن هذه الخيام،رأى فجأة فرقة من الخيالة تنطلق نحوه بسرعة جنونية،وهي تعرف باسم"الفنتازيا" حتى خشيّ أن تدوسه الخيل وتسحقه لجريها الجنوني ويصاحب ذلك الجو فرقعة مدوية،كأنها انفجار قنبلة،وبعد أن أوقف العرب جيادهم،أخذ كل منهم بندقية، وصوبها نحوه،ثم أطلق عليه النار،تعبيرًا عن الفرح بهم والترحيب الحار وحسن الاستقبال، والعرب يسمون هذا "خلي البارود يتكلم"فلا يستطيع أي إنسان أن يكرم بأكثر من أن ينطلق نحوه بسرعة الفنتازيا الجنونية "ويخلي البارود يتكلم "في وجهه،فرغم إقامته الطويلة والمتكررة بكثرة في الجزائر إلاَ أنه لم يتعرف على هذا النوع الأصيل من الترحيب ".[3]

وحفاوة الاستقبال التي وجدها بالصحراء لم تقل شأنًا عن التي حظي بها في الجلفة يقول هاينريش فون مالتسان "بعدا أن تركنا برج سعادة،وهي قرية صغيرة،من الطوب وصلنا في المساء إلى مضارب خيام بني طاوس،وكان وصولنا،فيما ظهر عندئذ مثيرًا،فقد استقبلنا

[1]-Ch.de.Galland:Excursion de Bou-saada à M'sila,Ollendorf,paris1899,pp16,17.

[2] −Op.cit,p19.

[3]− هاينريش فون مالتسان،ج٣، المصدر السابق ، ص ص٢٠٩، ٢١٠.

بضجة كبيرة،كانت الكلاب العديدة تنبح بأصوات عالية،وظلت كذلك لفترة طويلة،فأرادت في تلك اللحظة أن تعوض ما فاتها،تلك الأصوات الحادة،التي يطلق عليها العرب اسم "يويوه" والتي تتميز بنوع من الصراخ يشبه عواء بنات آوى،وكان الأطفال يبكون، وكانت الديكة تصيح باختصار، لقد اختلط الحابل بالنابل حقيقة،وكل ذلك احتفاءا بنا".[1]

وبعد أن حط رحاله في خيمة الضيافة تم إحضار القهوة وأخذ الرحالة في تجاذب أطراف الحديث مع شيوخ القبيلة وأعيانها إلى أن حان موعد تقديم العشاء،والذي قدم فيه الكسكس واللبن.والفلفل وقد أكدّ ذلك بقوله"وقدم لنا العشاء بعد حين في قصعة مغطاة بفوطة،ولمّا رفعت الفوطة رأينا قبة من أجمل قباب الكسكس، والفلفل واللبن،والزبيب،ولحم الخروف وأشياء أخرى كثيرة،تكومت كلها بجانب بعضها بعض في القصعة.كانت "ضيفة شرفت المضيف وضيفه! وجلسنا حول القصعة مع سيدي عمر وثلاثة من أعيان القبيلة المضيفة".[2]

والرحالة ج.أو.هابنسترايت هو الآخر عبر عن حسن الاستقبال والضيافة التي لقيها في احدى الدواوير في الجزائر،بقوله "وبعد أن عبرنا قنطرة قديمة جدا على نهر اعترض سيرنا،توقفنا لأخذ قسط من الراحة بدوار يتكون من العديد من الخيام بوطن قبيلة دغوسة،ووجدنا ملجأ نحتمي فيه من الحرفي خيمة شيخ الدوار الذي سارع بتقديم بعض الزاد والعلف.وبعدها تابعنا طريقنا على أمل أن نصل إلى دوار آخر نجد فيه مأوى مريحا وغذاء للأشخاص المصاحبين لنا،وبعد الوصول إلى هذا الدوار والتوقف فيه قصدنا شيخه الذي تسلم من وصية موجهة إليه في شأنا من قائد عنابة،فبادر باستقبالنا بحفاوة كبيرة".[3]

وقد أضاف الرحالة ج.أو.هابنسترايت "لقد قضينا ليلة مريحة على فرش صوفية أحضرت لنا،ومع ذلك فإن هذا الوضع فاجأ رفاقي الذين بقوا في مدينة الجزائر عندما قمت بأول سفر لي داخل البلاد مع الآغا، فمع أنهم كانوا يرغبون في الاستمتاع بهذه الرحلة إلاّ

---

[1]– هاينريش فون مالتسان،ج٣، المصدر السابق ،ص١٣٣.

[2]– المصدر نفسه، ص ١٣٤.

[3] –ج.أو.هابنسترايت، المصدر السابق، ص ص ٨٢، ٨٣.

أنهم تفاجئوا عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى قضاء الليلة تحت خيمة أسود لونها من دخان الموقد،وأن يناموا بجانب الماعز والجديان،وباستثناء هذه المفاجأة فإننا استطعنا النوم بأمان لأن حسن الضيافة إحدى خصال العرب،فهم يسهرون جيدا على حراسة الأجانب،وهناك كلاب متحفزة تثير الانتباه لأي محاولة هجوم قد يقوم بها رجال القبائل الأخرى،فضلا على أن هؤلاء العرب يمتلكون الحراب والأسلحة النارية لرد المهاجمين،وبالمناسبة وزعنا على مستضيفينا بعض الأدوية التي طلبوها منا،وأثناء ذلك أحاط بنا جمهور من الناس الذين سرتهم رؤيتنا ".[1]

وطبعا فحسن الضيافة عند العرب يشهد لها كل من زارهم،وكان من بين عادات الضيافة في فلسطين،أنه يتم غرس شجرة تين أو شجرة جمبيز ضخمة،قرب خان لتكون تلك دليلا للمسافر،وغالبا ما يتم المقيل لدى جانب من المدينة،حيث تكون الفرصة،أكبر بالعثور على الضيافة الأكثر سعة،والأكثر حميمية، حيث يهرع أبناء المنزل لتقديم ماء الاغتسال،وحيث تنشغل الأم ونساء والأبناء بالخدمة، وهذا ما حدث على الأقل للامارتين في فلسطين،حين تم استقباله كما لو كان سيدًا عظيما،وقد حوطه الشيوخ من كل صوب مدججين بالخناجر ومحاطين بي رجالهم وخدامهم:"كان الشيخ بانتظارنا لدى مقدمة منزله،بينما كان ولده الأصغر يمسك بيده الجمرة الفضية،ويحرق باليد الأخرى أمام جيادنا بالبخور،وكان إخوته يلقون على ثيابها بروائح العطور،وكانت الوليمة في انتظارنا وليمة عظيمة في الصالة المجاورة حيث أشجار بأكملها تتوهج في باحة المنزل ".[2]

[1] – ج.أو.هابنسترايت، المصدر السابق ، ص ٨٣.

[2] –بيير جوردا، المصدر السابق،ص٢٧.

سادسا-عادات ومراسيم المآتم والجنائز:

يأخذ الموت في التراث العربي الإسلامي قدرا كبيرا من الأهمية،لأنه يشكل أهم حدث في حياة الإنسان كفرد وفي حياة الناس كمجتمع،فهو كالولادة بل أكثر أهمية،كون الولادة قدوما إلى الحياة،والموت وداعا لها،والموت حق على كل نفس لقوله سبحانه وتعالى:﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾يَٰٓأَيَّتُهَاٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾.[1]والمرء لا يعلم المكان الذي سيفارق فيه هذا الكون.قال سبحانه وتعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥعِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِّ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاّ وَمَا تَدْرِى نَفْسُۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿٣٤﴾﴾.[2]

لقد توارث شعوب المناطق العربية طقوس الموت من زمن بعيد فكل الطقوس المصاحبة للموت ترسخت في أذهانهم وأصبحت من التقاليد الاجتماعية السائدة التي توارثها الأجيال.

وتبدأ طقوس البكاء والنواح منذ الصرخة الأولى التي تعقب الإعلان عن الوفاة .هذا ما سرده تيدنا عند حضوره موت أحد العرب "كنت أحضر أحيانا موت بعض العرب،فبعد موت الميت مباشرة يجتمع الأهل والأصدقاء ويصدرون صراخا يمزق القلب " .[3]

وبعد هذا تأتي عملية تغسيل الميت بالماء الطاهر وتكفينه بقطعة قماش بيضاء،وقد وصف تيدنا طريقة تغسيل الميت التي شاهدها عند ما كان أسيرا في قصر الباي بالغرب الجزائري فقال:" يغسل الميت بالماء المعطر مبتدئين بالرجلين،ولم يكن يسمح بلمس المكان الذي تم غسله وبعد الانتهاء من الغسل يكفن الميت في قماش جديد ".[4]

وبعد طقس التغسيل والتكفين وبعد أن ينتهي الجميع من الأكل،يوضع الجسد المسجى على الأرض كي يتسنى لأهله أن يلقوا عليه نظرة الوداع الأخيرة ثم يحمل على نعش من الخشب إلى المقبرة.هذا ما أكده تيدنا بقوله:" ويذهب الجميع إلى الأكل،وبعد الانتهاء من ذلك يحمل النعش إلى القبر وهو عبارة عن حفرة متوسطة العمق رشت بالماء ليوضع بها

---

[1]- سورة الفجر،الآية٢٦، ٢٨.

[2] -سورة لقمان،الآية٣٤.

[3]-عميراوي أحميدة، المرجع السابق،ص٩١.

[4]-المرجع نفسه،ص٩١.

الجثمان ويغطى بالحجارة بكل عناية وترتب بحيث لا تسقط ذرة من التراب عليها،كل ذلك كان ينفذ بسرعة ومن دون انقطاع ".[1]

فالتعجيل والهرولة أثناء سير باتجاه المقبرة،ليس من أجل التخلص من هذا الميت،وعدم الاحترام لروحة ولذكراه،وإنما العكس تماما،فسر العجلة هو تقدير للميت وإكرام له،وفي الإسلام إكرام الميت التعجيل بدفنه.

ومن الملاحظ أن طقوس الموت واحدة عند كافة الشعوب العربية،فمثلا في يعبر أهل الميت عن حزنهم بترك الشعر مشعثا،أو بنتفه والنواح بأصوات عالية واللطم على الوجه وإلقاء اليدين في الأرض وضربهما وتمزيق الثوب،وربما كانت عادة تلطيخ الرؤوس بالطين وطأطأتها من ضمن هذه التقاليد.فقد وصف بيرتون منظر النساء المصريات وهن يندبن موتاهم فقال:" وزاد من كآبة النظر،زحام النسوة وهن يتبعنّ أبناءهن وإخوانهن وأزواجهن مولولات نائحات،واضعات الطين والتراب فوق ملابسهن المشقوقة،وهي أمور معتادة في حالة الحزن والولولة عند الموت،طريقة خاصة للتعبير عن اللوعة بسبب الفراق" .[2]

والشيء نفسه وجده فندلين شلوصر عند النساء الجزائريات ،فالمرأة كثيرة البكاء والنحيب واللطم على الخدود،عند حدوث مكروه ما وخاصة الموت" فعند حضورهن مآتم أقاربهن" يجتمعن حول قبره، ويطلينّ وجوههنّ بالبعر،ويندبنّ ويعبرنّ عن حزنهنّ عن طريق الصراخ والعويل".[3]

سابعا- المعتقدات والخرافات الشعبية:

تمثل البلاد مزيجا بين العلم والمعرفة من جهة والجهل و الشعوذة من جهة أخرى،ذلك أن المجتمع كان يتخبط في الخرافات،أمّا المعرفة فقد كانت محصورة تقريبا في أولئك الذين

[1]- عميراوي أحميدة، المرجع السابق، ص٩١.

[2]- ريتشارد.ف.بيرتون،المصدر السابق،ص١٠٣.

[3]-فندلين شلوصر، المصدر السابق ،ص٩٥.

ارتادوا المدارس،والذين حتى وإن كثر عددهم لم يستطيعون دحض ومحاصرة تلك الأفكار المسلم بها.

١- العناية :

وهي أن يتآخى شخصان،فيكون كلاهما درعًا يحمي الآخر،حتى إن كان الوضع يجبره على الوقوف ضد أهل قبيلته أو قريته،فبمجرد أن يعطى له كلمة واحدة بأنه عنايته،فلا يحيد عن هذه الكلمة حتى إن اضطر الأمر إشعال حرب مقابل ذلك حماية عنايته هذه،فإن تقاعس عن ذلك لحقه العار وأصبح مدعاة سخرية من الناس،وحتى إذا مات فلن يتخلى الذي بقي حيا عن حمايته نحوه سواء ما تعلق بالدعاء له فوق قبره أو الاهتمام بأهله أو الانتقام له ".[١]

وقد ذكر هاينريش فون مالتسان أن حضرحادثة في قبيلة بني "تازمالت"حول العناية،فقد كان هنالك لشيخ القبيلة محمد أمزيان بن عمر عناية مع مرابط عجوز مسكين،فقتله الفرنسيون أثناء محاولاتهم إخضاع المنطقة وكان ملقى على الأرض،وحين مرّ شاب يهودي يتاجر مع القبائل المجاورة لبجاية ورأى المرابط،شحب وجهه وارتعدت شفتاه،ولما سأل الجنود عن السبب قال:"أن المرابط هو العناية،وهو ما أثار استغراب الجنود حتى أنهم بدءوا يسخرون من المرابط،لكن الشاب اليهودي كان على علم بأهمية العناية عند سكان منطقة زواوة،ولما سمع شيخ القبيلة بذلك أقسم على الانتقام من القتلة،وبما أنه لم يستطع ذلك أيضا،فتألم الشيخ لذلك،وسبب عدم انتقامه لعنايته أصبح مثار سخرية بين الناس من القبائل المجاورة،وخصوصا أن عنايته كان مرابطا ذا شأن بين الناس،لذلك فما كان من هذا الشيخ إلاّ أن استعمل خدعه لينتقم لعنايته،وذلك بدعوته للقائد الفرنسي "سولومون دي موسي"إليه،زعما الصلح،فحضر هذا القائد ومعه الترجمان وبضعة ضباط،فذهبوا كلهم ضحية

[١]-هاينريش فون مالتسان ،ج٢، المصدر السابق،ص١٢١.

غدر الشيخ سعد الذي انتقم منهم لموت عنايته،وهنا تمكن هذا الأخير من استعادة مكانته بين القبائل المجاورة وبين سكانه أنفسهم".[1]

٢- الاعتقاد بالكرامات:

يؤمن العرب ببعض المعتقدات المتعلقة بكرامات الأولياء إذ يقصد الزوار الزوايا من كل حدب وصوب،سواء كانوا رجالا أم نساء،فهم يقصدون الأولياء للتبرك بهم وطمعا في الشفاء من الأمراض،وتزويج العزاب،وتسهيل الأمور العسيرة...الخ.وليهذه الأماكن قداسة عظيمة فهم يؤمنون بأنهم قادرون على تحقيق المعجزات،وقادرين على القيام بأفعال خارقة،في حياتهم،أو بعد موتهم،وتعتبر هذه المعتقدات من الأشياء المترسخة في المجتمع الجزائري كزيارة الأضرحة والتبرك بكرامة الأولياء والخضوع لبعض المرابطين.

يقف الرحالة هاينريش فون مالتسان في رحلة على أحد المرابطين يدعى بوبغلة حيث يقصده الجميع وخاصة النساء فهو كما يعتقدون أن"بركته تمنح القبائليات العاقرات أطفالا،وكانت زيادة النسل دائما من اختصاص الأولياء المسلمين،وتحدث المعجزة عادة في خيمة صغيرة(قرب سور الغزلان)كان يسكنها بوبغلة".[2]

وهناك الوالي سيدي عبد القادر الجيلالي بالشلف الذي قد نسب إليه كرامات كثيرة و هو " يحتل مكانة مرموقة في الجزائر،وهو مسلم صالح".[3]

كما يوجد هناك مرابطون آخرون يحظون بالإجلال والتقديس في الجزائر وخارج الجزائر كقبة عبد القادر الجيلالي الذي يضحى بقداسة و إجلال كبيرين،و هو ليس وليا محليا فقط بل إن العالم كله يقدسه، ويعتبره مسلمو الهند الشرقية حامي وطنهم ".[4]

3-حفلات الزنوج "الدردبة":

[1]- هاينريش فون مالتسان ،ج٢،المصدر السابق ،ص ص١٢٢، ١٢٣.

[2]- المصدر نفسه ،ص١٥٥.

[3]- هاينريش فون مالتسان،ج١،المصدر السابق،ص٢٣٠.

[4]- المصدر نفسه،ص٧٣.

لقد وصف هاينريش فون مالتسان حفلة من حفلات الزنوج التي أتيح له أن يحضرها في قسنطينة وهي" حفلة من حفلات الزنوج تعرف باسم الدردبة، فالزنوج والزنجيات يشتهرون بالأوهام والخرافات بأن لهم علاقة مباشرة بالجن تلك الأرواح الغريبة صاحبة المعجزات،ويدعى الزنوج بأنهم وبواسطة الأضاحي التي يقدمونها لأسيادهم الخفيين،يستطيعون أن يشفوا أمراض كل الذين يشاركون بأموالهم في تقديم هذه الأضاحي،ويؤمن العرب الواهمون، وخاصة النساء منهم،بما لشعائر الجن من أهمية كبيرة،أما المسلمون الصالحون فيعتبرون هذه الطقوس الزنجية إثما كبيرًا.[1]

٤-حفلات العيساوة:

عيساوة هي "تلك الطائفة التي يدعى أفرادها القدرة على أكل النار واللعب بالحيوانات السامة دون أن يصيبهم منها أذى ".[2]ويحدثنا هاينريش فون مالتسان عن حفلة من الحفلات التي كانت تقيمها طائفة عيساوة والتي حضرها بمدينة قسنطينة " وأقمت في بيت عربي منخفض،جلس في وسطه خمسينا شخصا مهلهلي الثياب،وكانت أمامهم طنابير،يطلقون عليها اسم تم،يدقونها بكل قوة،ويغنون بأصوات حادة أغنية.كانت دعاء.وأثناء هذا الدعاء قام زنجي وأخذ يؤدي "رقصة دينية " وعندما بلغ الأسود حدا معينا من الهوس،بدأ يمارس ألعابه الخطيرة،فأدخل أولا حديدة نارية في فمه،ثم غرز سكينا في عينه وأكل الزجاج المكسور والمسامير الكبيرة،وأخذ عقربا في فمه،وأنهى وجبته الغذائية بتناول ثعبان حي ".[3]

ويضيف لنا أيضا بيير جوردا طقوس العيساوة التي شاهدها فيقول:" كان الرقص ذلك اليوم وسط فناء مبيض بالجص،ومحاطا بالأروقة وحيث الأشباح البيضاء -النساء- ترتعش تحت سماء الأزرق النيلي،ثم سمع نشيج طفل يذبح وضحكات الغيلان،لقد شهد ذلك اليوم نشوتهن المآتمية وتوباتهن المسعورة،وتشنجاتهن الشيطانية:(كان كل شيء يتراكض ويرتجف ويقفز وينقنق ويعوي في صخب بشع...وصار إلى أن تسحب الضفادع والسرطانات والثعابين من أكياس صغيرة،وأن تلتهم وهي حية...مع علامات لذة لا تضاهي فهنا تراهم يلعقون الرفوش والمعازق المجمرة بالنار،وهناك من يمضغ الجمر المنتقد،وكان الآخرون

[1]- هاينريش فون مالتسان، ج ٣،المصدر السابق،ص٤٨.

[2]-المصدر نفسه،ص٤٢،

[3]- المصدر نفسه،ص٤٣.

يستقون من داخل الطناجر الفخارية السميط الممزوج بالزجاج المسحوق وهشيم الخزف ليلتهمونها فأصبت بدوار مرعب".[1]

وقد تمكن هاينريش فون مالتسان من الكشف عن أباطيل وخرافات طائفة العيساوة، بمجرد لقائه بأحد المنظمين إلى هذه الطائفة،وأكد له بأن كل ما يقمون به من أعمال فيه خداع لا أكثر فلا زجاج ولا مسامير تؤكل،ولا خناجر تغرز في الأجساد،فالحداد هو الذي أعدّ معجزة الخنجر حين جعل له لولبا يعيده إلى مقبضه وأما عادة أكل الثعابين فهي عادة قديمة عند بعض القبائل الإفريقية،أنهم يعرفون كيف يجردوا الثعابين من سمومها ،إذن "فالإسلام لم يكن مصدرا لهذه الشعوذة، فهي تعود إلى عبادة الثعابين الإفريقية التي كان يمارسها الوثنيون الليبيون ولكنها انتقلت إلى دين محمد،ذلك أن الإسلام في الحقيقة لا يعرف مثل هذه الطوائف.ولهذا السبب تتهم جميع الطرق الاخوانية تقريبا في السحر والشعوذة".[2]

[1] –بييرجوردا، المصدر السابق، ص٧٠.

[2] – هاينريش فون مالتسان،ج٣،المصدر السابق،ص ص٤٧، ٤٨.

الخاتمة

الخاتمـــــــة:

لقد حاولنا من خلال عملنا هذا تسليط و الضوء، على التراث الشعبي في دراستنا لـ"العادات والتقاليد العربية في الرّحلات الغربية"، حيث أسهمت كتابات الرحالة في نقل كثير من الصور الجميلة عن العادات والتقاليد، والمشاهد المميزة للبلدان التي ارتحلوا إليها .وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية، وأفكار سكانها.

وقد دخل هؤلاء الرحالة إلى البلاد بصفات وأهداف متعددة: فمنهم الباحث وعالم الآثار، ومنهم السائح والتاجر، ومنهم الطبيب والمبعوث السياسي والدبلوماسي ومنهم الجسوس، وكلّ على حسب هدفه، وقد قام هؤلاء الرحالة أيضا بدراسة أوضاع المناطق العربية التي زاروها والتعرف على أحوالها كما سبق وأن أشرنا، حيث قاموا بتأليف كتابات وتقارير عنها وكانوا حريصين دائما على تقديم صورة واضحة عن العادات والتقاليد الشعبية، مع وعيهم بالاختلاف الثقافي، كما أنهم رجحوا كفة العيان على السماع.

وفي ختام هذا البحث توصلنا إلى عدة نتائج يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

- ❖ أن نمط كتب الرحلات فن قائم بذاته يحوي الكثير من المعلومات التي تهم دارس الأدب، والمؤرخ و عالم الاقتصادي، و عالم الاجتماعي .
- ❖ أن الرحلات منبع ثري لمختلف العلوم،وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة على العصور فالرحلات تكشف ملا يكتشفه التاريخ.
- ❖ تميزت كتابات الرحالة بالتنوع الأسلوبي كما أنها لم تركز على مجال واحد أو اختصاص بعينه؛بل خاضت في مجالات عديدة ومسائل مختلفة، علمية، أدبية، ثقافية، سياسية،واقتصادية.
- ❖ أن وقوفنا على العادات والتقاليد العربية التي استنطاقنا من النصوص الرّحلية الغربية،قد أثبت أن العرب يتربعون على تراث غني ومتنوع الضروب، فهو يمثل الهوية الوطنية والعزة والكرامة للشخصية العربية أن المجتمع العربي قائم على

الترابط الأسري بين جميع أفراده، وأن الأسرة مفهوم مقدس لها مكانتها الخاصة في تصور هذا المجتمع.

- ❖ أن الكثير من العادات والتقاليد العربية متجذرة في أعماق المجتمع العربي كالكرم وحسن الضيافة والاستقبال، واحتشام المرأة العربية،وغيرها من العادات والتقاليد السائدة في هذا المجتمع.
- ❖ أن المجتمع العربي مجتمع له ثقافته المتميزة والمتفردة والتي تختلف عن أي ثقافة أخرى.
- ❖ انتشار بعض المعتقدات والخرافات الشعبية كالدجل والشعوذة والتوسل إلى الله بالأموات والأولياء، والصراخ والعويل عند الوفاة .

ومجال العادات والتقاليد في التراث الرّحلي الغربي بكر لم ينل حظه الوافر من الدراسة، ولا يزال يعاني من الإجحاف،لذا فإنه موضوع يحتاج إلى جهود الباحثين والمهتمين به من أجل إثرائه وفتح أفاق جديدة للبحث .

ملخص

ملخص:

تحاول هذه الدراسة الموسومة بـ"العادات والتقاليد العربية في الرّحلات الغربية"،الكشف وإزالة الستار عن العادات والتقاليد الراسخة في المجتمع العربي، والمتواجدة والبارزة في ثنايا النصوص الرّحلية الغربية، ذلك من خلال تناول مجموعة من نصوص الرّحالة الغربيين الذين زارو البلاد العربية.

وحتى يتحقق الهدف كان من الضروري تقسيم البحث إلى مقدمة ومدخل وفصلين؛ فبينا في مقدمته موضوع البحث والأسباب التي أدت بنا لاختياره، والخطة التي سرنا على منوالها، بالإضافة إلى المنهج المتبع في دراسة البحث.

أما في المدخل فقد عرجنا إلى مسار فن الرّحلة وجذوره ودواعي تدوين الرّحلات والمنهج المتبع في طريقة التدوين وكذا أدبية الرّحلة.

أما الفصل الأول كان عبارة عن إضاءات نظرية حول أدب الرّحلة ففيه تطرقنا إلى مفهوم الرّحلة وأنواعها ودوافعها، بالإضافة إلى مفهوم أدب الرّحلة وقيمته،والموروث الثقافي في أدب الرّحلة.

أما الفصل الثاني فقد حاولنا استنطاق النصوص الرّحلية الغربية باستخراج كافة العادات والتقاليد العربية.

ثم كانت الخاتمة التي لخصت فحوى ما في البحث عبر أهم النتائج المتوصل إليها، يليها ذكر لأهم المصادر والمراجع التي استعنا بها في إتمام هذا البحث.

Résumé:

Cette étude qui est manquée par "les coutumes et les traditions arabes dans les textes d'un groupe de trekhers occidentaux".

Détecter et supprimer le rideau sur les coutumes et les tradition, enracinées dans la société arabes qui ' est située et présentées dans les plus de textes des trekhers occidentaux .

On essaye de prendre un groupe de texte des trekhers occidentaux qui' on visite les pays arabes, et pour ce luit il est nécessaire de diviser notre recherche a:

Une traduction ,une entrée et deux chapitre, et on a montré dans notre introduction le sujet de recherche, les causes de choix , et les étapes à suivre et la méthode suivre dans l'étude de rechercher, dans l'entrée on a présente l'art du chemin de voyage, des racines et ses condition et codification des voyage ainsi que sa culture.

Le premier chapitre est comme théorie qui éclaire autour de la littérature on a présent le concept de voyage, et ses qualités ses conditions ainsi que et respect la valeur et patrimoine culture.

Le deuxième chapitre nous avons essayé interroger les textes du trekhers occidentaux, et montres toutes les coutumes et les tradition arabes.

Puis la fin qui résume la poussée de ce que la recherche à travers l'important résultat acquis, suivie par mention des sources, et références, utilises qui nous à aider dans la réalisation de cette recherche.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص.

أ- المصادر:

١) إميلياإدواردز، رحلة الألف ميل، تر، إبراهيم سلامة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٢) بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية، تر:مي عبد الكريم علي بدر، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سوريا، ٢٠٠٠.

٣) ج.أو.هبنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو، هبنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، (١١٤٥هـ، ١٧٣٢م)، تر ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠٠٧.

٤) جون .ب.وولف،الجزائر وأوربا (١٥٠٠، ١٨٣٠)،تر:أبو القاسم سعد الله،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،١٩٨٦.

٥) جيراردي نرفال، رحلة إلى الشرق، ج٣، تر، كوثر عبد السلام البحيري، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٩.

٦) ريتشارد.فبيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ج١، تر:عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤.

٧) فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد بايٍ، (١٨٣٢-١٨٣٧)، تر: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٧.

٨) نيكوس كازانتزاكيس، تر:محمد الظاهر،منية سمارة،شركة الأمل للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٩١.

٩) هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا،ج١، ج٢، ج٣، تر: أبوالعيد دودو، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠.

١٠) وليام شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (١٨١٦-١٨٢٤)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢.

١١) Ch.de.Galland:Excursion de Bou-saada à M'sila,Ollendorf,paris1899.

ب- المراجع:

١) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تح : عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، (ط.١)،المغرب. مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي،ط١، القاهرة ١٩٨٦.

٢) أبو الحسن القلصادي علي الأندلسي، رحلة القلصادي، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، (د.ط)، (د.ت).

٣) أبو الحسن على بن موسى بن سعيد، المغربي، كتاب الجغرافيا، تح: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، الجزائر،١٩٨٢.

٤) أبو العيد دودو،الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان،(١٨٣٠-١٨٥٥)،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،١٨٨٩.

٥) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠ -١٨٣٠، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٦) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجه):سنن ابن ماجه، تح: بشار عواد معروف، مج١، ج١، دار الجيل، ١٩٩٨.

٧) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، جدة، (د.ت).

٨) أحميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٣.

٩) أديب أبي ظاهر، عادات الشعوب وتقاليدها، دار الكتاب العربي، دار الشواف للنشر، ط١، ١٩٩٢.

١٠) بدير حلمي، أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، دار الوفاء، (د.ط)، الإسكندرية، ٢٠٠٢.

١١) البشير صفر، الجغرافية عند العرب نشأتها وتطورها، دار المغرب الإسلامي، (د.ط)،بيروت،١٩٨٤.

١٢) الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩١.

١٣) الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج١، منشورات عكاظ، (د.ط)، (د.ت.

١٤) حسن محمد سليمان، تراث العربي الإسلامي، دراسة تاريخية ومقارنة، دار المطبوعات الجامعية، (د،ط)، الجزائر، (د،ت).

١٥) حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط٢، بيروت، ١٩٨٣.

١٦) حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، عالم المعرفة،(د.ط)، الكويت، ١٩٨٩.

١٧) حسين نصار، أدب الرحلة، الشركة الوطنية المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١ مصر ١٩٩١.

١٨) رفيق حبيب، المقدس والحرية، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.

١٩) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مؤسسة هنداوي للتعليم، (د.ط)، القاهرة.

٢٠) سميرة أنساعد،الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى، (د.ط)، الجزائر، ٢٠٠٩.

٢١) سيد حامد النساج، منشورات كتب الرحلة (قديما وحديثا، مكتبة غريب : (د.ط)، (د. ت).

٢٢) سيد علي إسماعيل، أثر التراث الغربي في المسرح المعاصر، دار قباء للنشر والتوزيع، (د.ط)، القاهرة، ٢٠٠٠.

٢٣) شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية لنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦.

٢٤) شوقي ضيف، فنون الأدب العربي، الفن القصصي، الرحلات، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة (د.ت).

٢٥) صلاح الدين الشامي، الرّحلة عين الجغرافية المبصرة، منشأة المعارف، (د.ط)، الإسكندرية.

٢٦) عبد الإله عبد الجبار، عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة العربية السعودية، دراسة ميدانية أنثروبولوجية حديثة، ط١، جدة، ١٩٨٢.

٢٧) عبد الحميد بورايو، في الثقافة الشعبية الجزائرية التاريخ والقضايا والتجليات، دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).

٢٨) عبد الرحمن مودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة،ط١،الدار البيضاء،١٩٩٦.

٢٩) عبد الرحمن مودن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي، للنشر و التوزيع، ط١، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة،٢٠٠٦.

٣٠) عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرّحلة في القصيدة الجاهلية، الأسطورة والرمز، الانتشار العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٩.

٣١) عمر بن قينه، اتجاهات الرّحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، ١٩٩٥.

٣٢) عمرو بن العبد، [طرفة] ديوان،تح: دعمر الطباع،دار القلم للطباعة والنشر، (د.ط)،بيروت، (د.ت).

٣٣) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة. مكتبة الملك فهد الوطنية(د.ط)،الرياض، ١٩٩٦.

٣٤) عيسى على إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفية الجامعية،(د.ط)،الإسكندرية،مصر،٢٠٠٠.

٣٥) فاروق أحمد مصطفى، الأنثروبولوجيا ودراسة التراث الشعبي، دراسة ميدانية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٨.

٣٦) فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربي للكتاب، ط٢، القاهرة ، ٢٠٠٢.

٣٧) فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار الكتاب العربي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

٣٨) مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٩٨٤.

٣٩) محمد الدبيسي، رحلة الحج، (ط١)،(د.م)، ٢٠١٥.

٤٠) محمد الصالح السليمان، الرّحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث ١٩٩٩(دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د .ط)، ٢٠٠٠.

٤١) محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، ١٩٦٧.

٤٢) محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، دار الأندلس الخضراء، ط١، جدة، ٢٠٠٠.

٤٣) محمد بن سعود الحمد، موسوعة الرّحلات العربية والمعرّبة المخطوطة والمطبوعة معجم ببليوجرافي، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧.

٤٤) محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية "دراسة"، منشورات اتحاد الكتاب العرب (د.ط)، دمشق ٢٠٠٢.

٤٥) محمد سعيدي، من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية – ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا – مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (د.ط)، الجزائر، ١٩٩٥.

٤٦) المسعودي أبو الحسن علي ابن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج١،تقديم: محمد السويدي،موفم للنشر،(ط.١)،الجزائر،١٩٨٩،ص٣.

٤٧) مسلم بن الحجاج ، صحيح مسلم ،ج١٧، دار الكتب العلمية ،(د ط)، بيروت ،١٩٩٢.

٤٨) ناصر عبد الرزاق الموافي، أدب الرحلات عند العرب، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، ط١، القاهرة ، ١٩٩٥.

٤٩) نبيل علقم، مدخل لدراسة الفلكلور، جمعية إنعاش الأسرة، (د.ط)،رام الله، ١٩٧٧.

٥٠) نقولا، زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، (د.ط)، بيروت، ١٩٨٧.

٥١) وهب رومية، الرّحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩.

٥٢) وهبة الزحيلي، التفسير الوجيز على هامش القرآن العظيم ومعه أسباب النزول وقواعد التنزيل، ج٢٩، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سورية ١٩٩٤.

ج-القواميس والمعاجم:

١) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٢، تح : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر(د.ط) ، بيروت، ١٩٧٩.

٢) ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، م١١، دار صادر ، ط١ ، بيروت،١٩٩٠.

٣) إسماعيل بن حماد الجوهري، معجم الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية،ج١،تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين،ط١،بيروت، ١٩٥٦

٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٣ ، دار الجيل، ط٣، بيروت (د.ت) .

٥) بطرس البستاني، دائرة المعارف،مج٨، مطبعة المعارف، (د.ط) بيروت، ١٨٨٤.

٦) سعد بن عبد الله الجنديل، معجم التراث حلقة السلاح، مكتبة الملك فهد الوطنية، (د.ط)،الرياض، ١٤١٦هـ.

٧) عادل عبد الجبار زايد، معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية،مكتبة الناشرين، (د.ط)،لبنان، ١٩٩٧.

٨) عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار الملايين،ط٢،بيروت، ١٩٨٩.

ثالثا :المجلات

١) جبور الدويهي ،الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن ١٨،مجلة الفكر العربي،العدد٢٣،١٩٨٣ .

٢) جمال العيفة، الثقافة الجماهيرية، منشورات جامعة باجي مختار،(د.ط)، عنابة، ٢٠٠٣.

٣) نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، العدد ٨٨، المملكة العربية،يوليو ١٩٨٤.

٤) مجلة الجامعة المغاربية، العدد الأول، السنة الثانية، ٢٠٠٧.

٥) مجلة جامعة دمشق، م٢٤، العدد الأول و الثاني، ٢٠٠٨.

٦) مجلة الجامعة المغاربية، العدد الأول، السنة الثانية، ٢٠٠٧.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة.....	أ-هـ
المدخـــــــــــــل	
أولا : مسار فن الرحلة وجذوره.....	٧
ثانيا: دواعي تدوين الرحلات والمنهج المتبع في طريقة التدوين.....	١٣
١-دواعي تدوين الرحلات.....	١٤
٢-منهج التدوين.....	١٥
أ- التدوين الزمني	١٥
ب-التدوين المكاني	١٦
ج-التدوين الموضوعي	١٦
د- التدوين الانتقائي	١٦
هـ-التدوين الاستدعائي	١٦
ثالثا:أدبية الرحلة.....	١٧
الفصل الأول :إضاءات نظرية حول أدب الرحلة	
أولا :مفهوم الرحلة.....	٢٠
١-الرحلة في اللغة.....	٢٠
٢-الرحلة في الاصطلاح.....	٢١
٣-الرحلة في القرآن والسنة.....	٢٣
أ-الرحلة في القرآن.....	٢٣
ب-الرحلة في السنة.....	٢٦
ثانيا: الرحلة وإشكالية التسمية.....	٢٧
١-الجغرافيا الوصفية.....	٢٧
٢-الأدب الجغرافي.....	٢٨
٣-أدب الرحلة.....	٢٩
ثالثا:أنواع الرحلات.....	٣٠

١-الرحلات الواقعية..... ٣٠
أ- الرحلات العلمية..... ٣١
ب- الرحلات الدينية..... ٣٢
ج- الرحلات التجارية..... ٣٢
د- الرحلات الجغرافية ٣٣
هـ- الرحلات الرسمية..... ٣٣
٢-الرحلات الخيالية..... ٣٤
أ-الرحلات الأسطورية..... ٣٦
ب- الرحلات المغامراتية..... ٣٥
٣-الرحلات النثرية والشعرية..... ٣٦
أ- الرحلات الشعرية..... ٣٦
ب-الرحلات النثرية ٣٦
رابعا:دوافع الرحلة..... ٣٧
١-دوافع دينية..... ٣٧
٢-دوافع علمية أو تعلمية..... ٣٧
٣-دوافع سياسية..... ٣٨
٤- دوافع اقتصادية..... ٣٨
٥- دوافع سياحية وثقافية ٣٩
٦-دوافع صحية..... ٣٩
٧- دوافع أخرى..... ٤٠
خامسا:مفهوم أدب الرحلة وقيمته..... ٤١
١-مفهوم أدب الرحلة..... ٤١
٢-قيمة أدب الرحلات..... ٤٣
أ- القيمة العلمية..... ٤٣
ب-القيمة الأدبية..... ٤٤
سادسا: المورث الثقافي في أدب الرحلة..... ٤٦
١-مفهوم التراث..... ٤٦

أ- المدلول اللغوي للتراث..... ٤٦
ب-المدلول الاصطلاحي للتراث..... ٤٧
٢-مكونات الموروث الثقافي..... ٤٨
أ- المعتقدات والمعارف الشعبية..... ٤٨
ب-الأدب الشعبي..... ٤٩
ج- العادات والتقاليد الشعبية..... ٥٠
٣-أهمية العادات والتقاليد..... ٥١
الفصل الثاني: الرحالة الغربيون ودورهم في الكشف عن العادات والتقاليد العربية
أولا:المناسبات والاحتفالات العائلية..... ٥٣
١-الخطبة والزواج..... ٥٣
٢-الختان..... ٥٩
ثانيا: المناسبات والاحتفالات الدينية..... ٦١
١-شهر رمضان..... ٦١
٢-عيد الفطر..... ٦٦
٣-عيد الأضحى..... ٦٨
٤- المولد النبوي الشريف..... ٧٠
ثالثا: عادات وتقاليد اللباس..... ٧١
١-مكانة الرجل العربي و لباسه..... ٧١
أ-مكانة الرجل العربي..... ٧١
ب-لباس الرجل العربي..... ٧٢
٢-مكانة المرأة العربية ولباسها..... ٧٦
أ- مكانة المرأة العربية..... ٧٦
ب-لباس المرأة العربية..... ٧٩
رابعا:المأكولات العربية..... ٨٣
١-الكسكس..... ٨٣
٢-الخبز (الكسرة)..... ٨٥
٣-الحلويات..... ٨٥

٤-المشروبات..... ٨٦
خامسا: عادات الضيافة عند العرب..... ٨٧
سادسا: عادات ومراسيم المآتم والجنائز..... ٩١
سابعا: المعتقدات والخرافات الشعبية..... ٩٣
١-العناية..... ٩٣
٢-الاعتقاد بالكرامات..... ٩٤
٣-حفلات الزنوج(الدردبة)..... ٩٥
٤-حفلات العيساوة..... ٩٥
الخاتمة..... ٩٨
ملخص باللغة العربية..... ١٠١
ملخص باللغة الفرنسية.....١٠٢
قائمة المصادر والمراجع.....١٠٤
فهرس المحتويات.....١١٢

تم بحمد الله